الفصل الرابع

"السنوات الأخيرة في السياسة الخارجية للملك عموري"

(١١٧٠- ١١٧٤م/ ٥٦٦ - ٥٦٩هـ)

- تصدي عموري لهجمات كل من نورالدين وصلاح الدين على المملكة (١١٧٠-١١٧٣م/٥٦٦-٥٦٨هـ).

- استغاثة عموري بالغرب والإمبراطورية البيزنطية، الأسباب والنتائج (١١٧١م-١١٧٣م/٥٦٦-٥٦٨هـ).

- مفاوضات عموري مع الحشيشية (١١٧٣م/٥٦٨هـ).

- عموري ومؤامرة عمارة اليمني في القاهرة (١١٧٣-١١٧٤م/٥٦٨-٥٦٩هـ).

تميزت السنوات التي امتدت من عام١١٧٠م/٥٦٥هـ إلى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ بتشعب اتجاهات الملك عموري على مستوى السياسة الخارجية، فمما يميز تحركات الملك عموري السياسية التي برز له دور فيها - سواء بالسلب أم بالإيجاب – فقدانه لروح المبادرة في كثير من تحركاته وخطواته، سواء كانت عسكرية أم دبلوماسية أم سياسية. فمما واجهته سياسة عموري في تلك الفترة محاولاته التصدي لهجمات نورالدين وصلاح الدين في شمال المملكة وجنوبها؛ إذ وصل الملك عموري في١من ديسمبر١١٧٠م/٢١من ربيع الأول ٥٦٦هـ أخباراً تتعلق بقيام صلاح الدين - نائب نورالدين في مصر ووزير الخليفة الفاطمي العاضد - في جيش كبير قدّره وليم الصوري فيما بعد بحوالي أربعين ألفاً من الفرسان، على حين لم يكن جيش الملك عموري الذي تحرك به لصد هذا الجيش يتعدى ألفاً ومائتين وخمسين من الفرسان والرجالة، ولم تكن وجهة صلاح الدين محددة في البداية بيد أنه فرض حصاره بعدئذ على مدينة الداروم.

ولم تكن الداروم سوى القلعة التي بناها الملك عموري في بداية حكمه، وهي على أية حال مشيدة فوق أطلال قديمة على أكمة قليلة الانحدار، وراعى عموري أن تكون متوسطة الأبعاد "تغطي مساحة لا تزيد عن رمية حجر وتكون مربعة الشكل، ويقوم عند كل ركن من أركانها برج كان أحدها أكبر من بقية الأبراج وأكثرها أمناً، على أنه لم يكن لها خندق ولا فصيل يحميها"، وقد هدف عموري من بنائه لها أن يتخذها مستعمرة صليبية تتيح مد حدود مملكته إلى الجنوب، كما ستمكنه من إحكام السيطرة على المنطقة المتحكمة في الطريق المؤدي من مصر إلى الشام والعكس، علاوة على جمع الضرائب السنوية من القرى المحيطة، وفرض الإتاوات على المسافرين المارين بذلك الطريق، ومن ثم فقد كانت القلعة شوكة في حلق صلاح الدين؛ لأنها تعوق حركته وحركة التجارة والمسافرين[1].

([1]) عن التحركات التي قام بها صلاح الدين تجاه الداروم انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٠- ١٣٤؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٤٤؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٠؛ البنداري: سنا البرق، ص٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق١، ص٤٨٩-٤٩١.

وحينما تحرك عموري من عسقلان إلى الداروم في ١٨من ديسمبر١١٧٠م/٨ من ربيع الآخر٥٦٦هـ، كان صلاح الدين قد استولى على ظاهر قلعة الداروم وسباه وسلب ما فيه وأشعل به النيران، وفي الوقت ذاته توجهت جماعات نقب الأسوار وعمال المناجيق إلى أبراج القلعة لمحاولة إسقاطها التي سبق واحتمى بها الأهالي، وكادت أبراج القلعة تسقط في يدي صلاح الدين، وفي تلك الظروف وصل الأخير أنباء اقتراب الملك عموري منه، فاستعدّ لمواجهته والتصدي له، وحينما شعر الملك هو وباروناته بالخوف من حجم الجيش الذي يقوده صلاح الدين فإنه قرر عدم التصدي لصلاح الدين، وبدلاً من ذلك أخذت فصائله وكتائبه ينضم بعضها إلى بعض –تدريجياً- في تجاذب منعها من الحركة.

ومن جهة أخرى لم يحاول عموري الرد على مناوشات صلاح الدين التي سعى من خلالها إلى جرّه إلى معركة فاصلة[١]، وظل الملك على وضع جيشه السابق يتحرك في بطء شديد حتى وصل إلى الداروم حيث دخل قلعتها التي استعصت على صلاح الدين، فاتخذها عموري مأوى آمناً له ولجيشه، وبينما يشير وليم الصوري إلى توجه صلاح الدين نحو غزة مباشرة[٢] فإن البنداري يُشير إلى قيام صلاح الدين بمحاصرة الملك في الداروم محاولاً استثارته للاشتباك معه، ولكن يبدو أن عموري لم يُظهر لصلاح الدين ما كان يريده، وعندها قرر الأخير - وقد امتلأ قلبه بالثقة - التوجه بجيشه في عمق المملكة إلى مدينة غزة[٣].

---

(١) يبدو أن الملك عموري كان يخشى الاصطدام المباشر مع صلاح الدين في معركة حاسمة وبخاصة أن الصليبيين كانوا يعانون نقص الأعداد بصفة شبه مستمرة، وعليه فإنه ربما تجنب عموري الدخول في مواجهة كبيرة مع صلاح الدين بناء على ذلك، وحينما تخلى الصليبيون عن تلك السياسة في معركة حطين ودخلوا بأعدادهم القليلة ضد المسلمين فقد دمرت جيوشهم أمام أعداد المسلمين الكبيرة.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٣-١٣٤، ١٣٧.

(٣) البنداري: سنا البرق، ص٥٧.وانظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٨٩-٤٩٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٢٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٨٥-٣٨٦.

كانت قلعة غزة بأيدي فرسان الداوية منذ أن عمّرها بلدوين الثالث ومنحهم إياها، وكانت القلعة على نصف التل، بينما كان نصفه الآخر مسكوناً من قبل سكان المنطقة بيد أنهم أقاموا سوراً قصيراً حوله، وحينما توجه صلاح الدين إليها احتمى سكان غزة بالقلعة تاركين الجزء الآخر من المدينة؛ لأنهم لم يكونوا على دراية بحمل السلاح، بيد أن ميلو دي بلانسي - قائد المدينة - حثهم على الدفاع عن الجزء الخاص بهم، ولكن كانت محاولاته فاشلة؛ ذلك أن صلاح الدين هاجم المدينة من الأمام والخلف وأحدث ثغرة بها أدت إلى وقوع المحاصرين في يديه، ويبدو أنه لم يتهاون مع الأسرى وبخاصة أن معظمهم كانوا من جماعة الداوية التي اتخذت - هي وبقية الجماعات المسلحة - موقفاً معادياً ومتعصباً ضد المسلمين، وبعدها كرّ صلاح الدين راجعاً إلى الداروم التي يعسكر عموري عندها[1]، وبينما يشير المقريزي إلى مهاجمة صلاح الدين للملك عموري عند الداروم حينما عاد إليه وانتصاره عليه وكاد الملك هو نفسه يُؤسر، وعاد صلاح الدين منتصراً[2]، فقد أشار كل من وليم الصوري والبنداري وأبو شامة إلى أن الملك عموري تجنب مرة أخرى ملاقاة صلاح الدين في معركة ربما يخسر فيها كل شيء، وكان الداوية والإسبتارية من أشد الناقمين على تصرف الملك السلبي خصوصاً أن وجود عموري لم يمنع صلاح الدين من ارتكاب ما قام به[3].

---

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٦؛ البنداري: سنا البرق، ص٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٨٩-٤٩١.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٨٥-٣٨٦.

(3) من الواضح أنه لم يحدث تنسيق بين نورالدين وصلاح الدين خلال تلك الحملة التي هاجم فيها صلاح الدين الداروم وغزة خلال ديسمبر ١١٧٠م/ربيع الآخر٥٦٦هـ، وذلك ما يتضح من انشغال نورالدين بالقتال على جبهة أخرى؛ إذ كان يحاصر الرقة في سبتمبر/محرم ٥٦٦هـ، ثم سار إلى نصيبين فأخذها في آخر ذلك الشهر، ثم استولى على سنجار في ديسمبر١١٧٠/ربيع الآخر ٥٦٦هـ، وبعد ذلك بقليل تدخل في أحداث الموصل لإنهاء منازعات أولاد أخيه قطب الدين بها، وهما عزالدين غازي وعماد الدين، فدخل نورالدين الموصل في١١من يناير ٣/١١٧١ من جمادى الأولى وأقر غازي عليها وزوجه ابنته، بينما أعطى سنجار إلى عماد الدين وبعدها تحرك نحو بلاد الشام، فدخل حلب في أبريل ١١٧١م/شعبان ٥٦٦هـ. انظر في ذلك: ابن شداد: النوادر، ص٢٨؛ وليم الصوري:

وينبغي ملاحظة أنه لم يحدث اتصال بين نورالدين وصلاح الدين للتنسيق ضد عموري في تلك المرحلة، وبالرغم من ذلك كان عموري في موقف لا يحسد عليه، حينما اتخذ الموقف الدفاعي مرتين، دون التفكير في التصدي لصلاح الدين أو رد مناوشاته، وقد تُعزي تلك السلبية التي أبداها عموري إلى حرصه على عدم المغامرة بجيشه الصغير إذا ما قُورن بجيش صلاح الدين - على ما ذكر وليم الصوري - ولكن التقدير الذي قدمه وليم لوصف أعداد الجيوش غير دقيق على الأقل فيما قدمه عن الجيش الإسلامي[1]، حقاً إن ابن الأثير يُشير إلى صغر حجم جيش الملك عموري[2]، ولكن لا يكون ذلك على حساب المبالغة في جيش صلاح الدين، بحيث يكاد وليم الصوري أن يُبرّر سلبية الملك بذعره من جيش صلاح الدين الذي لم ير أحداً في المملكة جيشاً مثله من قبل[3]، خصوصاً أن صلاح الدين لم يكن قد دعم موقفه في مصر بعد، بل ظل المناوءون له ولسياسته قائمين إلى ما بعد ذلك بعدة أعوام، ومن ثم فإن حشده لأربعين ألفاً من الفرسان فقط، ناهيك عن الرجالة وغيرهم تقدير مبالغ فيه، قصد به وليم الحفاظ على ماء وجه عموري.

ومن جهة أخرى فإن تقدير وليم الصوري ليس له سند في المصادر الأخرى - بل وليس مبرراً - على الأقل من وجهة نظر وليم الصوري التحليلية في مواضع

الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٦- ١٣٧؛ البنداري: سنا البرق، ص٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٨٩-٤٩.

ويعرف قطب الدين بأنه مودود بن عماد الدين زنكي بن أق سنقر، المعروف بالأعرج صاحب الموصل، وأولاده ثلاثة هم سيف الدين غازي الذي تولى السلطة بعده، وعز الدين مسعود، وعماد الدين زنكي صاحب سنجار، وعقب موت قطب الدين المذكور قصد نورالدين الموصل ثم قرر أمر غازي فيها، ورتب أحوال أولاد أخيه في أملاك أبيهم جميعاً.. وكان قطب الدين قد تولى السلطة بالموصل وما يتبعها عقب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر، وكان حسن السيرة عادلاً في حكمه، *"ولم يزل قطب الدين على سلطته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة"*. راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص٣٠٢-٣٠٣.

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٢.

(2) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٠.

(3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٧.

أخرى، ذلك أنه أبرز الملك عموري خلال أحداث الصراع على مصر أكثر من مرة في أعداد صغيرة، بينما قدّم صورة مبالغة لأعداد المسلمين، وبالرغم من ذلك فإن عموري لم يتورع عن مهاجمة تلك الأعداد والتغلب عليها[١]، أما موقف الملك هنا فربما كان انعكاساً للضعف الذي باتت مملكته تعانيه، ولعل هذا الخوف - إن لم يكن الذعر - هو الذي جعله يقوم في بداية عام ١١٧١م/منتصف٥٦٦هـ أي بعد موقفه السلبي أمام صلاح الدين، بالتماس مساعدة الغرب والإمبراطورية البيزنطية.

وبعد قليل من عودة صلاح الدين إلى مصر من الحملة السابقة قرر الخروج مرة أخرى إلى بلاد الشام في حملة عسكرية أخرى، ويبدو أن تحركات صلاح الدين كانت مدروسة هذه المرة بعناية، ذلك أنه بالرغم من ضيق الوقت الذي عاد فيه صلاح الدين إلى الشام وهو ما يُقّدر بما لا يزيد عن شهر، ربما خلال ديسمبر١١٧٠م/ربيع الآخر٥٦٦هـ، فإنه تحرك ومعه أجزاء المراكب مفككة على ظهور الجمال، ثم أمر بتركيبها وإنزالها إلى خليج العقبة وشن هجوما عنيفاً على قلعة أيلة[٢] التي كانت بأيدي الملك عموري، وكان هجومه المتواصل من البر والبحر من العنف بمكان، بحيث لم يكن مُقّدراً تحمّل القلعة لهجمات صلاح الدين طويلاً، في ظل عدم استجابة عموري لإنجادها.

وكان مما دفع صلاح الدين إلى محاصرة أيلة أنها كانت تهدد خطوط الاتصال بين مصر من جهة وبلاد الشام والحجاز من جهة أخرى، وبخاصة خطر فرنج أيلة على رحلات الحجاج إلى مكة والمدينة، فسقطت القلعة في يدي صلاح الدين "واستباح أهلها وما فيها"، ثم استقدم جماعة من ثقاته أسكنهم أيلة، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره[٣]، وبالرغم من إشارة وليم الصوري إلى تفاصيل حملة صلاح الدين على غزة والداروم فإنه لم يُشر إلى هذه الحملة التي سقطت فيها أيلة، ولم يبدُ أي رد

---

(١) راجع حملات الملك عموري على مصر في الفصل الثاني من هذه الدراسة للتعرف على المواطن التي أكد فيها وليم الصوري شدة ضعف الجيش الصليبي، وبالرغم من ذلك فإن الملك كان يشن هجومه على الجيش المسلم المفترض - في ظل رواية وليم الصوري - أن يكون كبيراً.

(٢) عن قلعة أيلة انظر: المقريزي: الخطط، جـ١، ص٥٢١-٥٢٢.

(٣) انظر في ذلك: المقريزي: الخطط، جـ١، ص٥٢١-٥٢٢.

فعل للملك عموري حيال ذلك، سواء في المصادر العربية أم الأجنبية وبينما يُشير بعض المؤرخين المسلمين إلى أن الاستيلاء على أيلة تم في العشر الأول من ربيع الآخر٥٦٦هـ[١] - أي منتصف ديسمبر١١٧٠م - يُقر آخرون حدوث ذلك في ٣٠من ديسمبر/٢٠من ربيع الآخر[٢]. والواقع أنه لا توجد قرائن يمكن الاستناد إليها لإقرار صحة أي التاريخين، ولكن إذا كان صلاح الدين قد توجه إلى أيلة في أول ربيع الآخر فالراجح أنه استولى عليها في نهاية الشهر ذاته، وقد يرجح حدوث ذلك في ٣٠ من ديسمبر/٢٠من ربيع الآخر تحديداً، خصوصاً أن عملية الحصار لم تكن سهلة سواء في البر أم في البحر، كما أن حركة صلاح الدين لم تكن سريعة في توجهه إلى أيلة بسبب اصطحابه لأجزاء المراكب على ظهور الجمال مما يستدعي الإبطاء، بيد أن التواريخ التي قدمتها المصادر تحوي قدراً من الخلط والتناقض يصعب معه ترجيح تاريخ محدد، ذلك أن ٣٠ من ديسمبر/٢٠من ربيع الآخر مجرد ترجيح يحتمل الصواب والخطأ[٣].

ويُشير عدد من المؤرخين المحدثين – بشكل مجمل - إلى أن الفترة التي تلت عام ١١٧١م/٥٦٦هـ وحتى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ كانت في صالح الملك عموري؛ لأنها أنقذت مملكته من دمار حقيقي، ويعلل هؤلاء ذلك بنشوب خصومة بين نورالدين في بلاد الشام وصلاح الدين في مصر، وكان مما استند إليه هؤلاء المؤرخون في هذا السياق عدم إكمال صلاح الدين لحملتيه التي حاصر بهما حصن الشوبك عام ١١٧١م/٥٦٦هـ وحصن الكرك عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ، بالرغم من انتصاراته المتتالية

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٠؛ البنداري: سنا البرق، ص٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٨٦.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٣٠. وقد اكتفى المقريزي بالإشارة إلى استيلاء صلاح الدين على أيلة في ربيع الآخر. انظر: المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٤٩.

(٣) عن اختلاف التواريخ الواردة في ثنايا أحداث الحملة انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٠؛ البنداري: سنا البرق، ص٥٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٨٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٢٠-٣٣٠، الخطط، جـ٢، ص٤٩؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٢١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٩٠-٩١، جـ٧، ص٢٨-٢٩

وغاراته عليهما بحيث لم يُبد عموري أي رد فعل، سوى خروجه بجيش المملكة وكأنه يشاهد من بعيد ومكتفياً بترصد حركة صلاح الدين[١]، وجل ما رصده وليم الصوري عن هاتين الحملتين مسارعة صلاح الدين بالعودة إلى مصر وهو في أوج انتصاراته دون أن يُعلّل السبب[٢]، بينما برّرت بعض المصادر العربية انسحاب صلاح الدين إلى مصر على أساس خشيته الاجتماع بنورالدين حتى لا يعزله الأخير عن حكم مصر[٣]، أو أن صلاح الدين لم يكن ينوي القضاء على الفرنجة حتى يظلوا حاجزاً بينه وبين نورالدين؛ لأن القضاء على الفرنجة سُيحرّك نورالدين إلى صلاح الدين لخلعه من حكم مصر[٤].

أما عن التقاط المملكة أنفاسها وارتياحها من الهجمات المتحدة بسبب خلاف نورالدين مع صلاح الدين، فإنها فرضية أخرى غير دقيقة تماماً؛ ذلك أن نورالدين كبّدَ الفرنجة خسائر فادحة بهجماته على أنطاكية وطرابلس وحوران وقيليقية بمساعدة مليح الأرمني شمالاً، بينما كان صلاح الدين يُهاجم نواحي المملكة من الجنوب في

---

(١) عن هؤلاء انظر:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.472-474; Baldwin, *The Latin*, p.560; Richard, *Le Royaume Latin*, p.55; Lilie, *Byzantium*, p.203, note. 257; Wieruszowski, *The Norman*, p.34.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥١-١٥٤.

(٣) حدث ذلك في أعقاب انسحاب صلاح الدين عن حصار حصن الشوبك، حينما علم أن نورالدين على مسافة قريبة منه فتعلل صلاح الدين بالخوف على مصر من تمرد الشيعة وبسبب رغبته في الحصول على المؤن والإمدادات والاستكثار من العسكر، على حين أحال بعض المؤرخين الأمر على أن صلاح الدين كان يخشى من مقابلة نورالدين حتى لا يعزله عن حكم مصر. لمزيد من التفاصيل راجع:

ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٢-١١٣، ١٢١، الباهر، ١٥٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٣٤-٣٣٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٧-٤٤٠، ٥١٨-٥١٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١٠-٣١١؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٢، ص٤٧؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٧-١٨٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٠-١٢١، الباهر، ص١٦١؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٢٥؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص٤٨.

أعوام ١١٧٠م/٥٦٥هـ، ١١٧١م/٥٦٦هـ، ١١٧٢م/٥٦٧هـ، ١١٧٣م/٥٦٨هـ، في غزة والداروم وأيلة والشوبك والكرك وإقليم البقاع بحيث لم يكن عموري قادراً على التصدي لأي منهما، ولعل ما استطاع عموري القيام به فعلاً هو إما المراقبة من بعيد، مهدراً قوى المملكة دون حدوث اصطدام حقيقي، أو التورط في الشمال ضد من يساندهم نورالدين ضد الفرنجة ومن هؤلاء مليح الأرمني.

وعندما حاول عموري تأديب مليح وردعه لم يتركه نورالدين وإنما ضغط على عموري بمهاجمته للكرك في جنوب المملكة مما عجّل بترك عموري حصاره لمليح ليعود مُسرعاً إلى المملكة لمواجهة نورالدين عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ، وعلى الرغم من محاولة عموري التودد إلى صلاح الدين، عن طريق رسوله الذي بعث به إلى عمارة اليمني باطناً وإلى صلاح الدين ظاهراً في أبريل ١١٧٤م/رمضان ٥٦٩هـ، فإن ذلك لم يفت صلاح الدين، ولم يغب عنه الهدف الذي يسعى إليه عموري، بل تظاهر بقبول وفادة رسوله، بينما دسَّ عليه من علم منه ما يسعى إليه عموري مفوّتاً الفرصة عليه دون الوقوع في الفخ الدبلوماسي الذي نصبه له عموري، سواء باتخاذه في صفه ضد نورالدين أم لمحاولة تنويمه حتى تنجح مؤامرة عموري مع عمارة اليمني[١].

وقد بدت شدة وطأة نور الدين وصلاح الدين على المملكة من ملاحظة تغير وضع الملك عموري من وضع الهجوم - بما قام به من حملات على مصر - إلى وضع الدفاع الكامل بحيث عجز عن التصدي لأي من نورالدين أو صلاح الدين بالرغم من محاربتهما له دون تنسيق بينهما، في الشمال والجنوب كل على حدة، وبخاصة أن نورالدين كان مشغولاً خلال أعوام ١١٧١م-١١٧٤م/٥٦٧-٥٦٩هـ بمحاولات توسعية جديدة في شمال الشام وقيليقية[٢]، بمعنى أن نورالدين لم يكن يسعى

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٣.

(٢) استغل نورالدين تحالفه مع مليح الأرمني لفرض سيادته على آسيا الصغرى، بما في ذلك الأرمن والملطيين والدانشمنديين والداوية في حصن بغراس والإمبراطورية البيزنطية في قيليقية. راجع في ذلك: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٩، الباهر، ص١٦٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩-١٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٤٧؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٣٧.وأيضاً: Michel Le Syrien, *Chronique*, p.331; Kinnamos, *Deeds*, pp.214-215; See

إلى مهاجمة المملكة ذاتها آنذاك بغض النظر عن خلافه مع صلاح الدين، وأما ما ذكره المؤرخون المسلمون عن حدوث جفوة في علاقات صلاح الدين بالأمير نورالدين فإنه يمكن اعتبار أن ما حدث بينهما لم يخرج إلى حيز الواقع[1].

ولكن هل كان باستطاعة نورالدين وصلاح الدين إذا ما نسقا جهودهما أن يكبدا المملكة الصليبية خسائر أفدح وغزواً أكثر تنظيماً؟ إن هذا السؤال يفترض ضمناً تأثير التوتر الذي أشارت إليه المصادر على العلاقة بين الطرفين، بيد أن حقيقة تحركات نورالدين في شمال بلاد الشام وآسيا الصغرى وتدخله المباشر وغير المباشر أكثر من مرة في الإمارات الأرمنية، وصراعه بجانب بني دانشمند ضد سلاجقة الروم في قونية، ثم تهديداته المستمرة للمملكة الصليبية، فضلاً عن تخريب صلاح الدين لغزة والداروم واستيلائه على أيلة، ومهاجمته لحصني الشوبك والكرك بحيث لم يستطع عموري أن يلتقط أنفاسه بين الشمال والجنوب، بل جعله يردد نداء استغاثته إلى الغرب الأوروبي ثلاث مرات على مدى ثلاثة أعوام، وسفارته هو شخصياً إلى بيزنطة، وفشله في توجيه أي هجوم داخلي ضد المسلمين في بلاد الشام، كل ذلك يعني عدم تأثر شكل العلاقة بين نورالدين وصلاح الدين الذي تردده المصادر، بل تبرز نورالدين أكثر نشاطاً وتحركاً في طول البلاد وعرضها، وكأنه أوكل مهمة مضايقة

---

also: Gibb, *Nur ad- Din*, p.527; Rohricht, *Amalrich I*, p.479; Magdalino, *Manuel*, p.75.

وانظر أيضاً:محمود عمران: السياسة الشرقية، ص ٣١٦-٣٢٦.

وبغراس قلعة حصينة في طريق غزو الثغور وبها دار ضيافة وليس بالشام دار ضيافة غيرها، وكانت في أيدي الداوية وبقي بها مليح الأرمني فترة برفقة جماعة الداوية، وقد استولى عليها صلاح الدين في شعبان ٥٨٤هـ فخرب قلعتها. انظر: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق،١٩٨٠م، جـ١، ص١٥١.

(1) انظر عنهم:

Rohricht, *Amalrich I*, pp.472-474; Baldwin, *The Latin*, p.560; Richard, *Le Royaume Latin*, p.55; Lilie, *Byzantium*, p.203, note. 257; Wieruszowski, *The Norman*, p.34.

المملكة من الناحية الجنوبية إلى صلاح الدين ريثما يتم نورالدين تحركاته في الجبهة الشمالية، بما يُشغل بال عموري ويعيق تحركه في الشمال حتى باتت المملكة محصورة بين تحركات كل منهما.

وقد وقعت استغاثة الملك عموري بالغرب الأوربي والإمبراطورية البيزنطية في هذه المرحلة في عامه التاسع ١١٧١م/٥٦٦هـ، أي بعد فشل عموري في التصدي لصلاح الدين في الداروم وغزة وأيلة، وفي ظل تلك الظروف وجد الملك نفسه مرة أخرى في مفترق طرق كلها متشعبة وشديدة الخطورة، ولم يكن يرى في الصعوبات التي يواجهها سوى أنها نتائج أعماله وتحركاته السالفة، سواء كانت عن حكمة أم عن طيش وتهور "كما أن مملكتنا كانت تعاني من جانب آخر نقصاً تاماً في القادة الألباء المحنكين العقلاء، ذلك أن الجيل الجديد الذي حلّ محلّ الجيل القديم وأخذ مكان كباره كان جيلاً ترعرع في الحمأ الخسيس، ولم يتمخض حلوله محل الرجال العظام عن أمر ذي بال، فبدد أصحابه ما ورثوه عن أسلافهم بطرق شائنة، مما أسفر عن تدهور المملكة تدهوراً ملحوظاً بات فيه ضعفها واضحاً حتى لأغبى الناس[١]".

ولم يكن رأي وليم الصوري الوحيد الذي دلل على ما آلت إليه المملكة من ضعف، وإنما كان رأيه من رأي الأمراء والبارونات أيضاً الذين بدءوا يتساءلون عن الحلول الكفيلة بإنقاذ المملكة، وكان منها مراسلة الغرب مرة أخرى والاستغاثة به "ومن ثم فقد قرروا بإجماع الآراء إرسال سفارة مؤلفة من أصحاب المكانة الرفيعة إلى أمراء الغرب، يشرحون لهم مشكلات المملكة ويسألونهم مد يد المساعدة والعون لها"، ومثلما توجهت السفارة السابقة في يوليو١١٦٩م/شوال٥٦٤هـ، توجهت هذه أيضاً إلى البابا والإمبراطور فردريك بربباروسا وملوك فرنسا وإنجلترا وصقلية وأسبانيا، وغيرهم من الدوقات والكونتات الآخرين "يناشدونهم الوقوف إلى جانبهم وتأييدهم في القضاء على الأخطار الفادحة التي تهدد المملكة[٢]".

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٨. وانظر أيضاً:
Fabri, *The book of Wandering*, p.330.See also Rohricht, *Amalrich I*, p.474.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٨-١٣٩.

وقد بدت الخطورة التي تعانيها المملكة جلية فيما حدث بعد ذلك مباشرة، ذلك أن اقتران إرسال سفارة إلى الغرب بإرسال أخرى إلى الإمبراطورية البيزنطية في الوقت نفسه وعلى رأسها الملك عموري ذاته وبعض كبار رجال المملكة، لدليل على خطورة ما رآه عموري ومعاصروه، خصوصاً أن علاقات عموري بالإمبراطور مانويل كانت متجمدة على أثر ما حدث بينهما في الحملة المشتركة على دمياط عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، ولاريب أن عموري كان يدرك مقدماً أنه ذاهب إلى بيزنطة بالرغم من حنق الإمبراطور على تصرفاته خلال أحداث الحملة، وبمعنى آخر ربما كان عموري يعلم أنه قد يضطر إلى دفع ثمن تصرفاته، وهنا يبدو واضحاً أنه كان في وضع حرج دفعه إلى الوقوع في هذا المأزق[١].

وفيما يخص نتائج سفارة عموري إلى الغرب الأوربي فإن الأمر لم يكن أفضل مما حدث منذ عامين، بل كان يزداد سوءاً فيما يخص علاقات ملوك أوربا بعضهم ببعض وعلاقة البابوية بهم، حقاً كانت فرنسا في عصر لويس السابع على علاقة طيبة بالبابوية، بحيث ضمت فرنسا إلى أرضها أشهر حادثي إيواء وهما ألكسندر الثالث وتوماس بكيت رئيس أساقفة كانتربري، دليلاً على حسن علاقات فرنسا بالبابوية[٢]، واستمرار كون ملكها لويس السابع قبلة لرسائل الملك عموري في هذا العام ١١٧١م/٥٦٦هـ والعام التالي ١١٧٢م/٥٦٧هـ[٣]، بيد أن صراع لويس السابع مع هنري الثاني ملك إنجلترا لم يقف عند حد، ولذا فإن مساعدة لويس السابع للشرق الصليبي لم تكن بالأمر الخطير الذي يجعله يترك أرضه عرضة لهجمات هنري الثاني[٤].

وقد سعى الملك عموري إلى إيجاد وفاق فيما بين لويس السابع وهنري الثاني عن طريق سفارته إليهما في صيف عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ حتى يتمكن من الاستفادة من قواتهما، وحاول برنارد Bernardus أسقف ليدياLyadenses ووكيل كنيسة القبر

---

(1) Fabri, *The book of wandering*, p.331.

(٢) انظر: زينب عبد المجيد: الإنجليز والحروب الصليبية، ص٥٩-٦٠؛ رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص١٠١-١٠٢.

(3) Amalrici, Hierusalem Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.157.

(٤) رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص١٠١.

المقدس الذي كان على رأس سفارة الملك أن يصف القوة التي يقودها صلاح الدين في تهديده للمملكة، وما سوف يترتب على محالفة نورالدين لسلطان قونية ومخططه الرامي إلى الاستيلاء على أنطاكية، وفي هذه المناسبة بعث عموري مع مبعوثه إلى هنري الثاني قطعة من الصليب المقدس التي حصل عليها عموري من أحد الأديرة، ثم أرسل قطعة أخرى من الصليب المقدس، حصل عليها عموري من مانويل إلى وليم أوف جورموند رئيس الدير[١]. ويتضح من توجه عموري مؤخراً إلى مهاداة هنري الثاني أنه أراد الاستفادة مما وعد به الملك هنري البابا ألكسندر الثالث بمساعدة الأراضي المقدسة، حيث أقسم هنري على حمل الصليب إلى الأراضي المقدسة في عيد ميلاد عام ٥٦٨/١١٧٣هـ[٢].

وبالرغم من كل ذلك فلم يُقّدر النجاح لمساعي عموري في الغرب؛ إذ تجاهلت فرنسا استغاثات الملك عموري بها متذرعة بصراعها مع إنجلترا[٣]، ولم تكن أوضاع إنجلترا الداخلية والخارجية عام١١٧١م/٥٦٦هـ بأفضل مما كانت عليه عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ؛ إذ انفجر الصراع بين الملك هنري الثاني وتوماس بكيت - رئيس أساقفة كانتربري - بحيث أصدر بكيت قراراً بالحرمان ضد الملك هنري ووقف ضده بكل قوته، وحينما اغتيل توماس بكيت في ٢٩من ديسمبر١٩/١١٧٠من ربيع الآخر٥٦٦هـ على مذبح كنيسته على يد أربعة فرسان فإن أصابع الاتهام أشارت إلى الملك هنري الثاني لكونه المستفيد الأول من مقتله[٤].

([1]) Rohricht, Regesta, no. 497; RHGF, XII, p.444.

([٢]) رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص١٠١-١٠٢؛ زينب عبد المجيد: الإنجليز والحروب الصليبية، ص٦٤-٦٥.

([3]) Rohricht, *Regesta*, no. 497; RHGF, XV, pp.938-940; Jaffe- Lowenfeld, *Regesta*, no. 12247. See also: Rohricht, *Amalrich I*, p.474.

([٤]) عن صراع هنري الثاني مع توماس بيكت ومصرع الأخير واتهام هنري بقتله انظر: زينب عبد المجيد: الإنجليز والحروب الصليبية، ص٥٥-٥٨، ٦٤-٦٦؛ رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص١٠١، ١٠٣. وانظر أيضاً:

Mayer, "Henry II of England and the Holy Land", *in HER.,* Vol. 97, No. 385 (Oct., 1982), pp.721-723.

ومما يعني الباحث من التعرض لذلك الحادث ما ترتب على اتهام البابوية للملك هنري الثاني بقتل بكيت وإلزامها للملك هنري بالقيام بعمل تكفيري يقتضي ذهابه في حملة صليبية شخصية إلى الأراضي المقدسة وإعداد مائتي فارس للخدمة في الشرق الصليبي، بيد أن هنري الثاني تحايل على ما وعد به البابا وبخاصة مسألة إعداده مائتي فارس للخدمة في المملكة الصليبية وذهابه بنفسه في حملة صليبية إليها، ذلك أنه استبدل المائتي فارس بإنشاء ثلاثة هيئات دينية وإن ظل قسمه بالخروج بنفسه قائماً، وعليه فقد بعث هنري الثاني بأموال طائلة إلى المملكة الصليبية، صارت بحوزة جماعتي الداوية والإسبتارية لتكون في انتظاره حينما ينوي التحرك إليها في الشرق، بيد أن المملكة لم تستفد من هذه الأموال التي لم يسمح هنري الثاني بصرفها قبل وفاة عموري عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ[١]، أما ألمانيا فلم يتغير موقفها من سفارة عموري، بسبب استمرار صراع فردريك بربروسا مع ألكسندر الثالث، وعليه فلم يكن من المفضل توجه السفارة إليه، مراعاة للبابا ألكسندر الثالث والتماساً لتأييده للمرة الثانية[٢].

ومن جهة أخرى عرض فردريك رئيس أساقفة صور الذي كان مبعوث

---

(١) على الرغم من أن وليم الصوري - الذي ذكر حادث اغتيال بكيت - لم يتطرق إلى هذا شيء يتعلق بهذا المال، فإن ماير يرجح أن جهل وليم بأمر أموال هنري في الشرق يرجع إلى السياسة التي اتبعها الأخير من وراء إرساله لهذا المال، بحيث لم يسمح بإنفاقه إلا بعد عام١١٨٧م/٥٨٣هـ، وقد توفي وليم الصوري في ١١٨٤أو ١١٨٥م، بحيث لم يشهد إنفاق أموال هنري، وكانت خطة هنري تكمن في أن إرساله للمال في وضع جامد ودفعات كبيرة، تجعله يبدو في نظر الكنيسة المدعم الكبير للأراضي المقدسة، وبذا سلب هنري الأضواء من الملك الفرنسي الذي غالباً ما توجهت إليه أنظار الفرنجة، وبحيث أبقى هنري نفسه في موضع بارز في السياسة الأوربية، وهكذا يظل المال ُجامداً حتى لا ينفذ، ولا يخرج هنري للحملة طالما كانت الحملة مرتبطة بشخصه، وهي سياسة بعيدة النظر في ظل صراعه هنري مع ألكسندر الثالث، ولكن كانت المملكة هي المصابة في نهاية الأمر؛ لأن عموري لم يستفد من تلك الأموال التي بعث بها هنري في وقت اشتدت فيه حاجته إليه.راجع في ذلك:

Mayer, Henry II, pp.723-725.

(٢) انظر في ذلك:

Mckilliam, A Chronicle of the Popes, p.290.

عموري في أوربا منذ عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ تزويج الملك عموري ابنته إيزابيلا، من زوجته الأولى آنياس دو كورتناي إلى الكونت ستيفن أكبر أولاد ثيوبولد الثاني كونت بلوا وشارترز وتروي، في محاولة من فردريك للحصول على الدعم من الغرب وبخاصة من كونت بلوا وشارترز وتروي، مثلما سبق وحدث على أيام فولك دانجو، ولاريب أن عموري كان مضطراً إلى الموافقة على هذا الزواج لأكثر من سبب، من ذلك مرض ابنه وولي عرشه بلدوين الرابع بالجذام، ولذا فقد كان عموري في حاجة إلى من يلي المملكة من بعده، ولأن عموري كان طامعاً فيما سيتمخض عن هذا الزواج من تنشيط الغرب لمساعدته للمملكة، ولكن خاب رجاؤه حينما قرر ستيفن تغيير رأيه برفضه لعرض الملك عموري وعاد إلى الغرب فأُغْلِقَ هذا الباب قبل أن يُفتح[١].

وقد يُفهم من قدوم بعض الأمراء الغربيين إلى المملكة عام ١١٧٢م/٥٦٧هـ على أنها أحد نتائج سفارة عموري إلى الغرب عام ١١٧١م/٥٦٦هت، ومن هؤلاء هنري الأسد الذي قدم على رأس قوة عسكرية معقولة إلى المملكة، بيد أنه لم يشترك في أية عمليات عسكرية بارزة، بل مر وجوده في المملكة مرور الكرام، بحيث أدى رحلة حجه وعاد بعدها إلى الغرب[٢]، ومنهم أيضاً الكونت ستيفن ابن وليم كونت الساؤون الذي قدم للحج وزيارة الأماكن المقدسة، وكان معه ابن أخيه هنري الصغير دوق برجنديا، ولكنهما - مثل هنري الأسد - لم يُقيما في المملكة سوى فترة قصيرة عادا بعدها إلى ديارهما في الغرب[٣]، وعليه فإن المساعدة المرجوة التي كانت سبباً لسفارات الملك عموري إلى الغرب لم تأت أبداً، ولعل عموري كان يستشف مثل تلك النتيجة منذ إعداده لسفارة عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، وعليه فقد كان قراره بالتوجه إلى بيزنطة على رأس سفارة إليها، بعد قليل من تحرك سفارته إلى الغرب الأوربي عام ١١٧١م/٥٦٦هـ.

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٧-١٤٨.

(2) Jordan, *Henry the Lion*, (Oxford, 1986), pp.154-155; Tyerman, "Who Went on Crusades to the Holy Land"?, *Hertford College*, Oxford, p.14.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٧-١٤٨.

ولكن هل كان الغرب بالرغم من مشاكله الداخلية مضطراً لمساعدة عموري؟ وهل كان الغرب مسئولاً عن المأزق الذي وضع عموري مملكته فيه؟ إذا كان دور الغرب تجاه المملكة منذ تأسيسها وحتى هذه المرحلة من عصر عموري قائم على دعمها بالمال والرجال، وبالحملات الكبيرة، كما في الحملة الثانية بعد سقوط الرها، وبدور البابوية الدعائي للمملكة في الغرب، فإن دور الغرب هاهنا كان على الوتيرة التي سار عليها دوماً، حقاً قلت المساعدات التي اعتادت التوجه إلى المملكة عقب فشل الحملة الصليبية الثانية، بسبب ما علق في أذهان قادة الحملة ما يعني عدم حاجة المملكة إلى مساعدة الغرب بيد أن الأخير لم يكن مسئولاً عما وصل إليه موقف المملكة من ضعف في عصر عموري، وفي الوقت ذاته فإن استيلاء نورالدين على مصر لم يزد عن فشل مشروع توسعي للملك عموري، وطالما لم تسقط إمارة كبيرة أو يتهدد جسد المملكة فإن المسئولية هنا -من وجهة نظر الغرب البعيد عن أرض المعركة ومناطق الصدام- منوطة بالملك عموري في ظل عدم استقرار ظروف الدول الغربية التي كانت تعاني هي الأخرى من مشاكل مشابهة لمشاكل المملكة وبمعني آخر من يساعد من؟

وفيما يتعلق بالسفارة الثانية إلى بيزنطة فقد قرر عموري أن يكون على رأسها؛ إذ ظن عموري أنه الوحيد الذي يستطيع إقناع الإمبراطور مانويل بفكرة تقديم العون للمملكة - على ما قال وليم الصوري - وقد لاقى هذا القرار اتجاهين بارزين في رواية وليم الصوري، أبدى أحدهما الدهشة من هذا القرار ولكنه أيده، بينما كان الاتجاه الآخر يخشى عواقبه وكان تبريره - حسب رواية وليم الصوري - أن المملكة تُعاني من الهجمات التي يوجهها كل من نورالدين وصلاح الدين شمالاً وجنوباً، مما يستدعي مناقشة رأي وليم الصوري، وبخاصة أنه الوحيد الذي انفرد من بين المعاصرين برواية كبيرة عن زيارة عموري لبيزنطة وذلك للاقتراب مما كان يدور في ذهن عموري بما أقلق بعض البارونات من ذهابه إلى بيزنطة[1]، وهنا يتساءل الباحث: هل كان لقلق بعض الأمراء علاقة ما بإصرار عموري على الذهاب بنفسه، بحيث يكون

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٩.

هو الوحيد القادر على إقناع مانويل بتقديم مساعدة عاجلة للمملكة؟

حقاً كان مانويل أقرب عاهل مسيحي من المملكة، ناهيك عن غنى إمبراطوريته وضخامة قوتها الحربية بما يفوق قدرات دول الغرب الأوربي بكثير، بيد أن حنق مانويل الذي نتج عن تصرف عموري خلال الحملة على دمياط عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، لم يكن ليختف بسهولة، ومن ثم فإن عموري كان ذاهباً إلى بيزنطة على مبدأ محدّد وهو قبول عموري محاسبة مانويل له، ومن جهة أخرى فإن هذا التوجه الذي لم يسبق به أحد من ملوك بيت المقدس الملك عموري في الخروج من بلاد الشام إلى البلاط البيزنطي يدل على الخطورة التي كان يراها عموري في تلك اللحظة التي اتخذ فيها هذا القرار؛ لأن بيزنطة سبق وقدمت المساعدة التي يمكن أن يتمناها عموري، وذلك خلال حملة دمياط، ولكن عجز عموري عن الاستفادة منها، ويبدو جلياً من صفة طلب عموري مساعدة بيزنطة له أنه تخلى تماماً عن أية مخاوف أو محاذير تجاهها بعدما تأكد من مصداقية الإمبراطور في تقديمه الدعم للمملكة.

وأما الأمر الأكثر أهمية فهو دلائل إصرار عموري على تحقيق أطماعه في مصر ولو بإراقة ماء وجهه أمام الإمبراطور البيزنطي، وثمة ملاحظة أخرى كان لها ثقلها في تغيير الملك عموري لنظرته إلى بيزنطة وهي أنه طالما استعان بالغرب الأوربي في شكل استغاثات تكاد تكون شبه سنوية ولكنه لم يتلق رداً مقنعاً على أي منها، فأرسل سفارات في أعوام ١١٦٣م/٥٥٨هـ، ١١٦٤م/٥٥٩هـ، ١١٦٥م/٥٦٠هـ، ١١٦٩م/٥٦٥هـ، ١١٧١م/ ٥٦٦هـ، ١١٧٢م/٥٦٧هـ، ١١٧٣م/٥٦٨هـ، ولكن كما أوضح الباحث لم يتلق المساعدة الكبيرة التي كان يأمل فيها، وبالرغم مما سبق فإن اتجاه عموري إلى بيزنطة يظل غامضاً في ظل طلبه للمساعدة من الغرب دون إدراك حاجته الشديدة للدعم البيزنطي في شمال بلاد الشام، حتى وإن قدمت المساعدة الغربية؛ لأنه لن يستفيد من مساعدة الغرب في الاستيلاء على مصر طالما لم يُؤمّن شمال بلاد الشام الذي لا يتوفر إلا بالتحالف مع بيزنطة، أما وقد أدرك عموري الآن أن اعتماده على الغرب لن يُفضي إلى ما تمناه فإن توجهه إلى بيزنطة يصبح ذا أهمية

كبيرة[1].

ويتضح الشق الثاني من التساؤل والممثل في تخوف البارونات من ذهاب الملك بنفسه على رأس السفارة إلى بيزنطة من العبارة التي أوردها وليم الصوري في عرضه لذلك الموضوع[2]، كما يتضح من مناقشة أهمية مكانة البطانة التي اصطحبت الملك إلى بيزنطة ومكانة أعضائها الوظيفية في المملكة ملاحظة غاية في الخطورة؛ إذ سافر مع الملك حاشية ذكر وليم الصوري أسماء أصحابها وهم جورموند صاحب طبرية ويوحنا صاحب أرسوف، والمرشال الملكي جيرار دي بوجي، وروهارد حاكم بيت المقدس ورنييه دي نيفيز وفيليب النابلسي الذي استقال من رئاسة الاسبتارية وسبق السفارة إلى بيزنطة براً ليُعلن عن اقتراب وصول الملك.

ويتخذ وليم الصوري من هذه القائمة دليلاً على أن جميع النبلاء وافقوا بالإجماع على ذهاب الملك عموري إلى بيزنطة[3]، ولكن إذا كان الأمر هكذا فأين بطريرك بيت المقدس ورئيس أساقفة الناصرة وفردريك رئيس أساقفة صور وسادة الجليل وقيصرية وصيدون وما وراء الأردن وهمفري صاحب تورون وميلو دي بلانسي ووليم الصوري وغيرهم من كبار بارونات المملكة ورجالها؟

يبدو أن هيئة الكنيسة اللاتينية - في المملكة - كانت تشكك في نيات البيزنطيين بدليل عدم ذهاب بطريرك بيت المقدس أو أسقف الناصرة، خصوصاً إذا كان عموري سبق وأرسل فردريك رئيس أساقفة صور، وهو صاحب المكانة الدينية السامية الثانية في المملكة، إلى الغرب الأوربي لطلب المساعدة عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، بينما لم يصطحب عموري إلى بيزنطة سوى أسقف عادي، لم يذهب معه لصفته الدينية وإنما لكونه مستشار المملكة، فهذه المقابلة تمثل توبيخاً أكيداً للصليبيين والبيزنطيين، أما باقي أعضاء البطانة الملكية فلم يكونوا من ذوي الثقل السياسي في المملكة ذاتها؛ إذ كان بعضهم من إمارة طرابلس مثل رنييه دي نيفيز، القائم على أعمال طرابلس،

---

(1) Lilie, *Byzantium*, pp.319-320.

(2) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٩.

(3) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٠.

بسبب أسر أميرها ريموند الثالث، ولم يبد رنييه في سجلات المملكة على أنه من نبلاء المرتبة الأولى في النبالة، بينما كان جورموند صاحب طبرية منتمياً لبطانة عموري مثله مثل جيرار دي بوجي.

وعلى ذلك لم يصطحب الملك عموري من البارونات الكبار سوى فيليب النابلسي، أما غياب البقية - بخلاف همفري وميلو الذين أُوكلا إليهما مسئولية الدفاع عن المملكة - فيشير إلى أن قرار عموري بالسفر إلى بيزنطة لم يحظ بموافقة إجماعية من قبل أكثر البارونات ثقلاً في المملكة[1]، ويُمثّل موقف البارونات السالف من سفر عموري إلى بيزنطة انعكاساً لمخاوفهم القديمة تجاهها؛ بسبب ما يمكن أن يترتب على تلك الزيارة من تقديم عموري من التنازلات ما يُشين المملكة ويقلل من سيادتها.

أياً ما كان الأمر فقد بدأ عموري رحلته إلى بيزنطة في البطانة السابقة في ١٠من مارس ١١٧١م/غرة رجب ٥٦٦هـ ، واضطر إلى الاتجاه براً إلى العاصمة البيزنطية بسبب ظروف الرياح المعاكسة، ثم وصل بحراً من غاليبولي إلى هرقلية بحيث يكون قادراً على الوصول إلى القصر الإمبراطوري الذي سيقابله فيه مانويل، وكان في استقبال عموري حاشية كبيرة على رأسها يوحنا كومنينوس حما عموري، وحينما دخل عموري القصر، وتوجه إلى حجرة العرش، أسدلت عليه هو والإمبراطور مانويل ستارة مدلاة بخيوطها الذهبية، بحيث أخفت الصفة التي استقبل عليها مانويل الملك عموري، وحينما أزيحت الستارة بدا مانويل جالساً على عرشه، بينما عموري إلى جانبه ولكن في مقعد أدنى منه، وذلك طبقاً لقواعد الاستقبال البيزنطي؛ إذ كان مانويل يستقبل ضيوفه من خلف ستار، ولكن يشير وليم الصوري - ربما بناء على ما أبلغه به عموري - إلى قيام مانويل بإسدال الستارة حتى لا يصطدم البلاط البيزنطي من منظر تحية الإمبراطور لضيفه[2].

ويُفنّد رنسمان هذا الرأي مرجحاً بقاء الستارة مُسدلة طوال الوقت، حتى لا يرى رجال البلاط البيزنطي والسفارة المرافقة للملك عموري كيفية استقبال مانويل لضيفه

([1]) Lilie, *Byzantium*, pp.205-206.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٢.

عموري بوصفه فصلاً إقطاعياً للإمبراطور[1]، بينما يرى هاريس Harris فيما حدث تصرفاً مدركاً بالحواس في استقبال ملك مطيع في وضع شرعي في البلاط البيزنطي، وقد اتضح ذلك من مراسيم الاستقبال، وأما إسدال الستارة فربما لرغبة مانويل في عدم الاستهانة الرسمية بإذلال عموري مثلما سبق وفعل مع رينو دو شتيون أمير أنطاكية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ[2].

والواقع أن الرأي الأخير متأثر برواية كيناموس الذي أشار بوضوح إلى استقبال عموري بوصفه تابعاً لمانويل في مقابل إمداد الأخير للملك عموري بالمساعدة التي جاء في طلبها[3]، بينما لم يُشر وليم الصوري إلى حدوث ما ذكره كيناموس، على الرغم من كون وليم الصوري صاحب الرواية الأكثر تفصيلاً عن الزيارة، بحيث جعله رنسمان دائناً للمؤرخين البيزنطيين بسبب ما كتبه عن القسطنطينية في أثناء زيارة عموري لها، بل تقدم روايته صورة للملك عموري وقد استقبله مانويل بما يليق أن يُستقبل به حليف قوي على غرار عموري[4].

بيد أن أياً من كيناموس أو وليم الصوري لم يريا ما حدث من استقبال مانويل للملك عموري، وإذا كانت رواية كيناموس تُقرّ بتبعية عموري لمانويل فإن صمت وليم الصوري لا ينكر ذلك مثلما لا ينفيه، ولكن الواضح أن كليهما استقى مادته عن مانويل وعموري، خصوصاً أنه لم يكن ثمة شاهد عيان ثالث مع العاهلين حينما استقبل أحدهما الآخر، مما يعكس أن رواية كيناموس التي لم تتجاوز ثلاثة أسطر، تعبر في أبسط الكلمات عن أمنية كيناموس نقلاً عن مانويل وكافة المعاصرين من البيزنطيين ومن سار على دربهم من المحدثين، بينما كتب وليم روايته المسهبة عن الزيارة بناء على ما أخبره به عموري، وسواء أخبره عموري بالحقيقة كاملة أم اقتص منها ما يجرح هيبته ويقلل منها فالمؤكد أن وليم لم يتخل عن محاذير كتابة قصة كهذه تقلل من الهيبة الملكية.

---

(1) Runciman, *The visit of Amalric*, p.154.

(2) Harris, *Byzantium*, pp.108-109.

(3) Kinnamos, *Deeds*, p.209.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٢-١٤٣.

وقد ترتب على وضوح رواية كيناموس وصمت وليم الصوري - في مسألة السيادة والتبعية - تطرق بعض الباحثين المحدثين لدراسة هذه الإشكالية، بينما أشار إليها آخرون عرضاً في معالجتهم للأحداث بصفة عامة، وكان منهم من يؤيد السيادة ومنهم من يعارضها، ولعل أهم من تعرض لها بالنقد والدراسة لامونت ورنسمان ولِيلِي ومجداليو، وقد تأثرت معالجة رنسمان بدراسة لامونت السابقة على دراسته، وهما – عموماً - يقدمان استفسارات أكثر مما يقرران ما حدث؛ إذ إنهما يعالجان ما إذا تمت مناقشة مسألة السيادة البيزنطية على الإمارات الصليبية والمملكة أم لا، حقاً إنهما يشيران إلى اعتراف عموري بتبعية مميزة لمانويل وأن عموري كان سعيداً بذلك، ولكنهما يشيران إلى أن اصطدام ممارسة بيزنطة لسيادتها الواقعية - التي طالما حاولت تأكيدها على أنطاكية على وجه الخصوص - بصعوبات كثيرة، ربما لم يكن بإمكان أباطرة بيزنطة تحقيقها وإجبار أمراء أنطاكية على الاعتراف بسيادتهم إلا في ظل وقوف الجيوش البيزنطية أمام أنطاكية، وحينما ينصرف الجيش ويبعد الإمبراطور فإنه يصعب ممارسة تلك السيادة في أبسط صورها[1].

وينفرد رنسمان عن لامونت بتفسير أوسع؛ إذ يشير إلى أن المملكة لم تكن تابعة للبابا إلا في الشئون الدينية كما لم تكن تابعة لملك فرنسا بالرغم من خروج معظم فرسان الحملة الأولى - التي أسست الكيانات الصليبية - من فرنسا، وذلك لأن الملك الفرنسي كان بعيداً عن المملكة، وحينما اقترب الملك الفرنسي لويس السابع من المملكة في الحملة الثانية فإنه لم يحصل على حقوق سيادية خاصة في المملكة، وبالمثل لم يعترف أحد ملوك بيت المقدس بالسيادة البيزنطية على المملكة، بالرغم من الطقوس التي استُقبل بها بلدوين الثالث في معسكر مانويل أمام أنطاكية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، تلك التي تشير - طبقاً للقواعد البيزنطية - إلى أن بلدوين الثالث كان أميراً تابعاً، ولكن لا يوجد دليل على قسم بلدوين الثالث بالولاء للإمبراطور مانويل،

---

(1) عن مناقشة لامونت ورنسمان لإشكالية السيادة واعتراف الملك عموري بالتبعية البيزنطية انظر:
La Monte, *To what extent*, pp.263-264; Runciman, *The visit of Amalric*, pp.156-157.

وبالمثل كانت "زيارة عموري للقسطنطينية ذات طبيعة مشابهة، ولسوف يُدرك أي متمكن من قواعد الضيافة البيزنطية أن الملك عموري الأول عُومِل بصفته فصلاً تابعاً ولكن بطريقة لبقة للغاية بحيث لم يجرب هو أو أي من حاشيته المرافقة له أي شعور بالخزي أو الإذلال"، وهكذا يشير رنسمان إلى ما قدمه عموري في بيزنطة بمعزل عن ممارسة أية حقوق سيادية على مملكة بيت المقدس ذاتها[١].

أما لامونت فقد ناقش مفهوم السيادة من زاوية أخرى؛ إذ إنه يعلق أهمية كبيرة على اختلاف مفهومي النظام الإقطاعي البيزنطي والغربي لفهم ما حدث بين العاهلين، أو ما قام به عموري على وجه التحديد، ذلك أن الفصل في النظام الإقطاعي البيزنطي هو الأمير الأضعف أو الأصغر الذي يقبل حماية الإمبراطور الأقوى، أما الفصل عند الغربيين وبالتالي الصليبيين فإنه الشخص الذي يلتزم أدبياً بالأيمان المقدسة تجاه سيده، مقابل أخذه لأرضه منه وقسمه له بحمايته والإخلاص له، فهذا الفرق بين المفهومين للكلمة نفسها واسع النطاق، وبناء عليه يُقرّ لامونت أن ما قام به عموري وجعله فصلاً في التصور البيزنطي للمصطلح لم يجعله كذلك في المعنى الذي فهمه عموري للمصطلح ذاته من وجهة نظر الغرب[٢].

وقد فنّدّ لِيلِي رأي لامونت في نظريته عن اختلاف مفهوم النظام الإقطاعي مؤكداً أن بيزنطة مانويل لم تكن بعيدة عن النظم الغربية ومفاهيمها، بل على العكس عج البلاط البيزنطي في عهد مانويل بالموظفين اللاتين، بحيث امتلك مانويل دراية كافية بالإقطاع الغربي بمفاهيمه وكيفية تطبيقها دون أن يقع فيما أشار إليه لامونت[٣]، أما مجداليو فيُقر بأن مانويل كان قادراً على تنظيم طقوس استقبال عظيمة للملك عموري مؤكداً تبعيته له مرة أخرى باستخدام ما حدث في صالة العرش، ومن ناحية الجانب البيزنطي فقد رجح مجداليو إقرار مانويل للملك عموري في منصبه وحصوله على تعهده بالخدمة[٤].

([1]) Runciman, *The visit of Amalric*, pp.156-157.

([2]) La Monte, *To what extent*, pp.263-264.

([3]) Lilie, *Byzantium*, p.207.

([4]) Magdalino, *Manuel*, p.75.

وعلى ذلك فإن ما قدمه كل من وليم الصوري وكيناموس أثار الكثير من الجدل حول مسألة التبعية بيد أن صمت وليم الصوري، يساوي في خطورته مبالغات كيناموس الذي كان يهمه شرف الإمبراطورية وإمبراطوره في المقام الأول، مما يجعل الباحث يُنحي روايتهما جانباً مؤقتاً. ويتضح من مطالعة أحداث بيت المقدس التي سبقت الزيارة أن قرار ذهاب عموري إلى القسطنطينية أثار انتقاداً حاداً في المملكة، حينما رأى عموري أنه الوحيد القادر على إقناع مانويل بتجديد تحالفه مع المملكة ومساعدتها، ولاريب أن تلك الإيماءة الكبرى، على حد تعبير لِيلِي، أثرت إيجابياً في الإمبراطور.

ولكن ما الذي يملكه عموري ولا يملكه أي سفير آخر كي يقدمه عموري إلى مانويل ليحمله على تغيير رأيه بشأن مساعدة المملكة؟ فالأمر الوحيد الذي لن ينافس فيه أحد عموري، هو أن يأخذ الأخير يمين الولاء الإقطاعي للإمبراطور؛ لأنه الوحيد الذي يملك أدائه بصفة شخصية؛ حقاً اتخذ عموري اتجاهاً سلبياً نحو بيزنطة في بداية حكمه وحتى حملة دمياط عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، بيد أن مانويل لم يقم بشيء يُبرر مخاوف عموري وسلبيته تجاهه، بخاصة أن مانويل لم يُعلق مؤخراً على ما ترتب على وفاة البطريرك البيزنطي في أنطاكية عام١١٧١/٥٦٧هـ.

ومن جهة أخرى لم يتخل مانويل عن دوره في شمال بلاد الشام حتى بعد ما حدث من تصرفات عموري في حملتي ١١٦٨م/٥٦٤هـ، ١١٦٩م/٥٦٥هـ على مصر، وقد تأكد أن نفوذ مانويل هو الذي منع نورالدين من الاستيلاء على أنطاكية عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، مثلما جعله يطلق صراح بوهيمند الثالث من أسر نورالدين، كما لم يُغيّر الإمبراطور مانويل من نياته تجاه عموري مؤخراً، حينما تحرك الأخير إلى مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ قبل أن يُضطر لقبول انتظار المساعدة البيزنطية، بدلالة إرسال مانويل لأسطول قوي كان أكثر مما وعد به من قبل، وبالرغم من الفشل الذريع الذي منيت به الحملة أمام دمياط فإن مانويل أثبت للملك عموري حسن نيته مرة أخرى، ولم يؤكد فشلهما في مصر أمام المسلمين في دمياط سوى ضرورة تحالفهما،

مما جعل عموري يقترب من الإمبراطورية[1].

وقد سبقت الإشارة إلى احتمال استعداد عموري للاعتراف بسيادة ملكي فرنسا وإنجلترا في مقابل دعمه في خططه في مصر، حقاً كان هؤلاء الملوك لاتين ولم يترتب على ما ذكره المؤرخون في ذلك الصدد حدوث نتيجة واقعية، ولكن قبول عموري للأمر في حد ذاته يُبرهن على انكسار حاجز حاسم بحيث لم تبق سوى خطوة واحدة وهي تقديمه للعرض ذاته إلى الإمبراطور البيزنطي، ويؤيد هذا الافتراض تكرار اتخاذ عموري لوتيرة معينة من الأحداث، بدءاً بالخوف من النفوذ البيزنطي يليه استغاثته بالغرب لمقاومة ذلك النفوذ، وحينما لا تنجح استغاثة عموري بالغرب، تعود بيزنطة محببة إليه مرة أخرى، وفي المقابل يحصل منها على المال والجنود أو الدعم الدبلوماسي على أقل تقدير.

لقد كان عموري مستعداً لقبول بعض الإنقاص من سيادته مقابل حصوله على الدعم بصفة عاجلة، ولا ينكر الباحث أن عموري رغب في قدوم تلك المساعدة من الغرب وليس من بيزنطة، ولكنه اضطر إلى التحول نحو الأخيرة، وذلك لأن الاستياء الذي سيحدث نتيجة الاقتراب من بيزنطة لن يقلل من معاناة المملكة في سبيل الحصول على الدعم، فإذا ما استعان الباحث بتردد البارونات الذي سبق ترجيحه، سيتضح أنه كان لموقفهم بعض المبررات؛ لأنهم كانوا يخشون خيانة عموري لهم في القسطنطينية، بينما لن يحصل عموري على أكثر من تجديد للمعاهدة الصليبية البيزنطية التي عقدها وليم الصوري مع الإمبراطور عام ١١٦٨م/٥٦٣-٥٦٤هـ، بما يعني أن اعتراف عموري بالسيادة للإمبراطور سيكون بلا فائدة.

ولكن إذا كانت هذه مجرد فرضية فإن احتياجات المملكة للمساعدة في ظل غياب مساعدة الغرب واستعداد عموري لقبول سيادة أجنبية على مملكته، ثم إثبات بيزنطة لحسن نيتها واستعدادها لمساعدة المملكة والإمارات الصليبية، كل ذلك يفترض ضمناً استعداد عموري للاعتراف بسيادة الإمبراطور مانويل عام

([1]) Lilie, *Byzantium*, pp.206-207.

١١٧١م/٥٦٦هـ[١]. على تلك الشاكلة كانت وجهات نظر المؤرخين المحدثين بين مؤيد ومعارض لقبول عموري للسيادة البيزنطية، وقد فشل بعضهم في إثبات حدوثها مثل شلمبرجيه، بينما نفى آخرون حدوثها تماماً مثل شالندو، على حين لم يتطرق روهرشت لهذه الإشكالية في دراسته عن عموري[٢].

بيد أن الأمر الملفت للنظر إقرار معظم المؤرخين المحدثين الذين عالجوا هذه الإشكالية، سواء من كان مؤيداً منهم أم معارضاً، أنه لم يترتب شيء ما على ما قدمه عموري في بيزنطة، بحيث لم تقم أبداً الحملة المشتركة التي تقرر مهاجمتها لمصر، والتي كانت أهم أسباب ذهاب عموري إلى بيزنطة، والأهم من ذلك أن الاتجاه كان واضحاً لدى الدارسين من البيزنطيين والصليبيين، في اتخاذ كل منهم وجهة محددة حيال ما قدمه عموري في بيزنطة؛ فالبيزنطيين يعدون ما حدث اعترافاً من عموري بالسيادة لمانويل بينما يعده الصليبيون تحالفاً، هذا على الرغم من اتفاق الطرفين على عدم اتخاذ عموري أو مانويل لأي إجراء تالي يؤكد تبعية الأول للثاني[٣]، ويرى

---

(١) يقدم لِيلِي استناداً إلى ما قدمه المؤرخ البيزنطي إيستاثيوس أوف تسالونيك، إشارة غير مباشرة على تبعية مملكة بيت المقدس الإقطاعية لبيزنطة؛ ففي إشارة إيستاثيوس لما يتعلق بأحداث اعتلاء الإمبراطور إندرونيقوس كومنينوس للعرش عام ١١٨٢م تحول اللاجئون البيزنطيون إلى قونية وأنطاكية وبيت المقدس، واستدعوا هؤلاء قواتهم هناك للتخطيط ضد إندرونيقوس؛ لأنهم كانوا يسعون للحصول على حق ألكسيوس الثاني ابن مانويل ومارية الأنطاكية، ولأن أنطاكية كانت مثلها مثل قونية، مقترنة بسيادة مانويل الأول فإن لِيلِي يفترض من خلال هذه الإشارة أن ذلك يقتضي ضمناً اعتبار بيت المقدس مثل أنطاكية أيضاً، فإذا صح هذا الافتراض فإنه دليل غير مباشر -وإن كان شاهداً بيزنطياً- على القسم الإقطاعي الذي قدمه عموري. انظر:

Lilie, *Byzantium*, pp.206-209, note.278. See also: La Monte, *To what extent*, pp.263.

(2) Rohricht, *Amalrich I*, p.559.

(٣) عن إشكال زيارة عموري للعاصمة البيزنطية وتعدد وجهات النظر التي عالجت أهميتها ونتائجها انظر:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٣٨-١٤٥. وكذلك:

Kinnamos, *Deeds*, p.209; Ernoul, *Chronique*, pp.32-34. See also: Baldwin, *The Latin*, pp.559-560; Rohricht, *Amalrich I*, pp.474-476; Magdalino, *Manuel*, p.75; Harris, *Byzantium*, pp.108-109; Richard, *Le Royaume Latin*, p.54; Runciman, *The visit of Amalric*, pp.154-157; Lilie, *Byzantium*, pp.204-205; La Monte, *To what extent*, pp.263-264.

الباحث أن تأكيد أي الاتجاهين مجازفة يعتورها صعوبات جمة لعل أهمها الافتقار إلى إشارات واضحة، تتيح إعادة النظر في هذه القضية من جديد على أساس صلب ومن زوايا أخرى، كي لا يقع الباحث في شرنقة إطلاق أحكام جزافية، وذلك لأن منبع مثل تلك القضية يعود إلى صراع الحضارات بين الشرق والغرب.

ولكن إلى ما أفضت مفاوضات الملك مع الإمبراطور التي استغرقت مدة طويلة؟ إذ بدأت الزيارة في ١٠من مارس/غرة رجب وانتهت بعودة عموري إلى بلاد الشام في ١٥من مايو/٨ من رمضان، وتضمن برنامج الزيارة الذي وضعه مانويل للملك عموري بعض الجوانب الترفيهية، وهي لدى رنسمان لا تُقارن بما قدمته بيزنطة لقلج أرسلان الثاني، سلطان سلاجقة قونية خلال زيارته لبيزنطة التي أفرد لها كل من كيناموس وخونياتس صفحات مطولة، بعكس ما قدمه عن زيارة عموري، في وصفهما للاحتفالات التي شهدتها العاصمة طوال مدة مقام قلج أرسلان الثاني فيها[١].

وأياً ما كان الأمر فقد كان وصف وليم الصوري للزيارة رائعاً، حيث كانت المفاوضات تحدث جنباً إلى جنب مع الترفيه والمتعة، وبمعزل عن الترفيه لم يقدم وليم الصوري ولا غيره أهم ما حوته المعاهدة - التي وضعت لمساتها الأخيرة قبيل رحيل عموري بقليل - من بنود مثلما لم تُحدّدّ مادة المفاوضات بوضوح، بخلاف ما يمكن أن يستشفه الباحث من السياق العام للزيارة وما تلاها من أحداث ذات صلة بالعاهلين.

فإذا ما نحّىَ الباحث مسألة الاعتراف بالسيادة التي عدّها عدد من المؤرخين

وأيضاً: محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣٢٤؛ رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٣٢-٦٣٣؛ اسحق عبيد، روما وبيزنطة، ص٢٣٣.

(١) انظر: Runciman, *The visit of Amalric*, pp.154-155.

وعن قصر بلاشرنا Blacherna الذي أقام فيه عموري يقول بنيامين التطيلي "وقد سمي القصر الجديد بلاشرنا غطى أعمدته وحيطانه بالذهب والفضة، ونقش عليها صور المعارك التي سبقت عصره وما حدث منها في عصره، كما بنى عرشا من الذهب ومطعماً بالأحجار الكريمة، وعلقه بالسلاسل الذهبية، بحيث يكون معقده أسفل ذلك العرش". راجع: Benjamin of Tudela, The Itinerary, p.13.

المحدثين أهم بنود المعاهدة[1]، فإن المادة الأساسية التي تم التفاوض بشأنها تتمثل في درء خطر صلاح الدين في مصر؛ ذلك أن خطورة نورالدين لم تكن غائبة عن بال مانويل؛ لأنه سبق وتعامل معها من قبل عدة مرات، أما صلاح الدين فقد كان وجه جديد على الساحة السياسية رأى فيه عموري وفي تحركاته وأسلوب تفكيره نمطاً جديداً كان عليه الحذر منه، لاسيما أنه أصبح يحكم مصر، البلد التي لم يكف عموري عن التفكير في الاستيلاء عليها.

ولاريب أن الدوافع التي حركت مانويل لمساعدة عموري في غزو مصر عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ هي ذاتها التي سوف تجعله يوافق على المشاركة في غزوها معه مرة أخرى في المستقبل، بيد أن الأجل لم يمهل عموري حتى يستفيد من معاهدته مع الإمبراطور في غزو مصر، وبخاصة أن المساعدة التي عزم مانويل على تقديمها للملك عموري تأخرت كثيراً بسبب ما وقعت فيه الإمبراطورية من مصاعب في الفترة التالية لعقد المعاهدة، هذا على الرغم من كون مشروع الاستيلاء على مصر بمثابة نقطة جوهرية في المفاوضات الجارية[2].

---

(1) ومن الذين عدو الاعتراف بالسيادة أحد أهم بنود المعاهدة: محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٣٢٤؛ رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٣٢-٦٣٣.

(2) قدمت السفن البيزنطية إلى المملكة في عصر بلدوين الرابع عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ بالأموال والجنود؛ لإنجاز تعهد مانويل في معاهدته مع عموري عام ١١٧١م/٥٦٦هـ بشأن غزو مصر، وهنا يرجح اشتمال المعاهدة على الوقت المناسب الذي يستطيع مانويل أن يقدم فيه تلك المساعدة، وقد بدا أن بيزنطة كانت متمسكة بالمشروع عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ، على حين كانت المملكة بين مؤيد ومعارض، وفي النهاية فشل المشروع، وكان لفيليب دو ألزاس كونت الفلاندرز دور كبير في حدوث هذا الفشل. انظر في ذلك: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٠٥-٢١١. وانظر أيضاً:

Ernoul, *Chronique*, pp.32-34. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.319-320.

ولكن لماذا لم تقدم بيزنطة مساعدتها للملك عموري في العام ذاته الذي أبرمت فيه المعاهدة، أي عام١١٧١م/٥٦٦هـ؟ ولماذا لم يحدث ذلك سوى في عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ تحديداً؟ ذلك أن حاجة عموري التي ربما دفعته لتقديم تنازل ما كانت ملحة، وعليه يصعب فهم تأخر مساعدة مانويل حتى عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ دون الوقوف على ما حدث في الإمبراطورية البيزنطية؛ لأنها هي التي ارتبطت بتقديم المعاهدة. إذ كان مانويل يواجه مشاكل كبيرة، بسبب التوتر الذي حدث في علاقاته مع البنادقة من جراء صراع مصالحهما في دالماشيا، وقد أصبح الصراع علنياً في مارس

ويضيف رنسمان ما يرجح اشتمال المعاهدة على بنود تتعلق بحماية ما للإمبراطور من سيادة على الكنائس الشرقية بما في ذلك كنائس المملكة، واستدل رنسمان على ذلك بما قام به مانويل من أعمال إصلاح وزخرفة في المؤسسات الدينية الأرثوذكسية في المملكة عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ[1]، ولكن كما يتضح من بداهة اقتراح رنسمان، يصعب أن يكون ما حدث عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ دليلاً على شيء تم التفاوض بشأنه عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، ومن جهة أخرى لم يُذكر شيء جديد عن أي نفوذ بيزنطي في كنائس المملكة في الأعوام التي تلت معاهدة عام ١١٧١م/٥٦٦هـ وحتى وفاة عموري ١١٧٤م/٥٦٩هـ.

١١٧١م/رجب٥٦٦هـ، حينما قبض مانويل على معظم التجار البنادقة في إمبراطوريته وصادر أملاكهم، وقد تلا ذلك قيام الأسطول البندقي بعمليات انتقامية ضد المدن البيزنطية وموانيها، وبالرغم من قدرة مانويل على الرد عليها فإنه كان من العسير على إمبراطوريته المغامرة بأسطولها في عمليات حربية في مصر وهي تواجه تلك المخاطر داخل حدودها.

وسرعان ما تعرضت خطط مانويل وتحالفاته التي أحاط نفسه بها خلال العقد الماضي للانهيار، بحيث ساءت علاقته بمملكة صقلية، بسبب سحبه عرض زواج ابنته ماريا من وليم الثاني الصقلي، مما أدى إلى تقارب كل من صقلية والبندقية ضد الإمبراطورية، بما عُقد بينهما من ميثاق عام ١١٧٥م/٥٧٠هـ، وبعد قليل فشل مانويل في مفاوضاته مع البابا ألكسندر الثالث حول الحصول على لقب إمبراطور الغرب، وذلك بعد تصالح ألكسندر الثالث مع بربروسا عام ١١٧٦م/٥٦١هـ، أما على الجبهة الشرقية فقد عانت الإمبراطورية من المشاكل التي كبدها إياها سلطان قونية، بتحريض من بربروسا، ترتب عليها الهزيمة المروعة للجيش البيزنطي في معركة مريوكيفالوم في آسيا الصغرى عام ١١٧٦م/٥٧١هـ، وفي ضوء هذه الظروف كانت مساعدة مانويل التي وعد بها عموري تكاد تكون مستحيلة، بحيث لم يبعث بها إلا عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ، حيث كان عموري في عالم آخر، وبالرغم من بقاء الخطورة التي استدعت طلب المملكة مساعدة بيزنطية عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، فإن المملكة أثبتت عدم تخليها عن المحاذير القديمة تجاه بيزنطة في عصر بلدوين الرابع أيضاً، والتي بذل عموري جهوداً كبيرة في سبيل فهمها واستيعابها، وبحيث أدت مع الوقت إلى فشل استغلال المساعدة البيزنطية. عن صراع مانويل مع مدينة البندقية. انظر:

Kinnamos, *Deeds*, pp196-197,209-214; Choniates, *Annales*, pp.97-98.

وانظر أيضاً: عبدالعزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٩٦-١٠٣. وعن تداعيات معركة مريوكيفالوم التي هزم فيها الجيش البيزنطي هزيمة لم يرَ بعدها أسيا الصغرى جيش بيزنطي بهذا الحجم انظر: Choniates, *Annales*, p.99-106.

(1) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٣٢-٦٣٣.

وأما البند الآخر الذي يُرجح اندراجه ضمن معاهدة الملك عموري مع مانويل فيتمثل في الاتفاق على اتخاذ إجراء مشترك ضد الأمير مليح (١١٦٨-١١٧٤م/٥٦٤-٥٦٩هـ) أخو توروس الثاني وخليفته في حكم قيليقية، والذي أزعج الإمبراطورية البيزنطية بهجماته على أملاكها، ولتفهم ما حدث والدواعي التي أدت إلى هذا الاعتقاد، وما إذا كان تدخل عموري في الأحداث حدث بناء على بند تفاوض بشأنه في بيزنطة أم لا فإنه يتعين الاقتراب مما حدث في قيليقية حتى تضح الصورة.

إذ أعقب وفاة توروس الثاني عام ١١٦٨م/ ٥٦٤هـ تنصيب ابنه روبن حاكماً على أملاكه في قيليقية، ولما كان روبن صغيراً في السن فقد أوكل والده الوصاية إلى توماس ابن أخته، وبذا حرم توروس أخيه مليح من حقه في الحكم، ولم يكن مليح آنذاك في قيليقية وإنما كان مقيماً لدى نورالدين، ويعود ذلك إلى قيام مليح بمؤامرة في حياة أخيه توروس قصد بها القضاء عليه، فطرده توروس من بلاد الأرمن في قيليقية ونبذه الجميع، فاضطُر مليح إلى اللجوء إلى نور الدين محمود.

ويشير ابن الأثير إلى محاولات استمالة نور الدين للأمير مليح حتى أصبح الأخير طوع أمره، وكان مما هدف إليه نورالدين من استخدامه للأمير مليح آنذاك أن يكون الأخير مساعداً له في محاربة الأرمن والفرنج والبيزنطيين وبخاصة أراضي الأرمن التي تتسم بالوعورة وشدة المخاطر، وفي مقابل ذلك بذل له نورالدين إقطاعاً على سبيل التحالف حتى أجابه مليح إلى الطاعة، وحينما أبدى بعض المسلمين امتعاضاً من استخدام نورالدين لمليح، أفصح لهم نورالدين عن غرضه بوضوح "قائلاً[١]: أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له، وكان مليح أيضاً يتقوى بنورالدين على من يجاوره من الأرمن والروم[٢]".

([١]) الضمير عائد على نورالدين.

([٢]) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٩. وانظر أيضاً: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦م، جـ١، ق٢، ص١٤٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٣٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٩-١٥٠؛ البنداري: سنا البرق، ص٧١؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٤٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩-١٨٠.

وقد استطاع مليح العودة إلى قيليقية بالمساعدة التي قدمها له نورالدين واستولى على أزمة الأمور، وحينما وعده أمراء الأرمن بالحصول على نصف أملاك أخيه توروس مقابل ألا يتعرض لأملاك روبن ابن أخيه، حنث لهم مليح في يمينه واستولى على معظم البلاد بما في ذلك أذنة[١] والمصيصية[٢] وطرسوس[٣]، المدن الرئيسة الثلاث في إقليم قيليقية، ومن ناحية أخرى استخدمه نورالدين في مهاجمة سلاجقة قونية وفي الاستيلاء على أملاك الداوية، ناهيك عن حضه على مهاجمة الفرنجة ذاتهم، أما عن تصرفات مليح داخل الأراضي الأرمنية ذاتها فإنه اتبع أسلوباً انتقامياً بالقتل والسلب والنهب والتعذيب، بصورة رهيبة لم يراع معها دين أو سن أو جنس، مما أسخط عليه جميع أمراء الأرمن، علاوة على إزعاج تلك التصرفات للأمير بوهيمند الثالث أمير أنطاكية[٤].

---

(١) وأذنه مدينة قديمة من بناء الروم، وجددت عمارتها في الدولة العباسية، وكانت فيما سبق خراباً كالمصيصة، أما الآن فإنها مدينة حصينة عامرة، منقطعة على نهر سيحان، من غربية وعليه، وبها قنطرة عجيبة البناء، على طاق واحد، وهذه القنطرة بينهما وبين حصن مما يلي المصيصة وهو شبيه بالربض، وقد بني هذا الحصن في أيام الخليفة العباسي المنصور، ولأذنة ثمانية أبواب وسور وخندق.راجع: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ١،ق٢، ص١٥٠؛ ابن العديم: بغية الطلب، جـ١، ص١٦٩-١٧١.

(٢) المصيصة من بلاد الأرمن، مدينة مذكورة في الثغور الشامية وأعمال حلب والإقليم الرابع، تشتمل على مدينتين بينهما نهر جيحان، مدينة المصيصة من الجانب الغربي من النهر ومدينة كفريبا من الجانب الشرقي. انظر: ابن العديم: بغية الطلب، جـ١، ص١٥٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ١، ق٢، ص١٤٤-١٤٩.

(٣) طرسوس مدينة قديمة من بناء الروم أيضاً، كانت تسمى قديماً لارسين، ثم سميت طرسوس، فعربت، وهي من الإقليم الرابع *"طولها - أي قدرها - من آخر العمار من خط المغرب ثمانون درجة. وبعدها من خط الاستواء أعني عرضها ست وثلاثون درجة....وعليها سوران وخندق واسع، ولها ستة أبواب، يشقها نهر البردان"*. وأضاف ابن العديم إلى وصف ابن شداد ما نصه "عليها سوران، في كل سور منها خمسة أبواب حديد، فأبواب السور المحيط بها حديد ملبس، وأبواب السور المتصل بالخندق حديد مصمت، فالسور الأول الذي يلي المدينة يعلوه ثمانية آلاف شرفة، فيه من الأبراج مئة برج". انظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ١، ق٢، ص١٥٢-١٥٤.وأيضاً: ابن العديم: بغية الطلب، جـ١، ص١٧٥، ١٧٩.

(٤) انظر في ذلك: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٤٩-١٥٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩-١٨٠. وكذلك:

ولم يقتصر تحرك مليح على ذلك وإنما تمادى - بتشجيع من نورالدين - إلى مهاجمة أراضي الإمبراطورية البيزنطية ذاتها عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ وتصرفه تجاه حكامها في قيليقية بلامبالاة[١]، ويرجح بقاء ذلك الوضع على تلك الحالة، حتى قرر عموري التوجه إلى الإمبراطورية البيزنطية عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، وهنا ربما كان تزامن أحداث زيارة عموري لبيزنطة وتصرف مليح على ذلك النحو تجاه الإمبراطورية هو الرابط الذي رجح قيام عموري فيما بعد بمهاجمة مليح، واستكمالاً لذلك الرأي يُقرر آخرون قيام عموري بالتصدي لمليح بناء على بند أقرته المعاهدة المعقودة بين عموري ومانويل في بيزنطة، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً فلماذا تأخر عموري في التصدي لمليح، على الرغم من بدء تمرد الأخير عقب وفاة توروس عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ؟

لقد اتجه عموري إلى قيليقية بناء على إشارة المصادر البيزنطية والعربية عام ١١٧٣/ ٥٦٨هـ، حينما تعرضت الجيوش البيزنطية للهزيمة بالفعل على يد مليح، وبمساعدة من قوات نورالدين، وقد تمكن مليح من أسر ثلاثين من كبار قادة الجيش البيزنطي، ثم ذهب بهم إلى حلب وباعهم في أسواق الأسرى، هم وغيرهم، علاوة على الغنائم والأسرى التي قدمها مليح إلى نورالدين[٢]، ويُصرّح كيناموس بعجز الإمبراطورية البيزنطية عن التصدي لتمرد مليح ضدها، بل وتؤكد المصادر ذاتها عدم تدخل الإمبراطور ضد مليح إلا حينما لمس خطورة تحالف كل من نورالدين ومليح وأمير ملطية وسلطان قونية لمهاجمة الإمبراطورية البيزنطية، ولذا فقد تحرك مانويل بجيوشه للتصدي لذلك الخطر وأقام معسكره في فيلادلفيا، ولكنه اضطر إلى الانسحاب حينما وصلته أخباراً تفيد بمهاجمة البنادقة والألمان للإمبراطورية من ناحية

Kinnamos, *Deeds*, p.214-217; Smbat, *La Chronique*, pp.49-54; Michel Le Syrien, *Chronique*, p.331. See also: Gibb, *Nur ad-Din*, p.527; Magdalino, *Manuel*, p.75.

([1]) Kinnamos, *Deeds*, p.214.

([٢]) ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص١١٩؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٩-١٨٠. انظر أيضاً:
Smbat, *La Chronique*, pp.52-54; Michel Le Syrien, *Chronique*, p.331.

الغرب، وقبل أن ينصرف مانويل قرر التعامل مع قلج أرسلان سلطان قونية بالدبلوماسية، وعلى حد إشارة كيناموس فقد نجح الإمبراطور في فصم عرى التحالف الذي شكله نورالدين ومليح ضد الإمبراطورية، ولم يتم لهما ما خططا له إزاء الإمبراطورية، وعند تلك المرحلة قرر الملك عموري التدخل لإيقاف مليح عند حد[1].

ويشير وليم الصوري في سبب توجه عموري إلى مليح إلى رغبة عموري في معاقبته على سوء تصرفه في الإقليم وبيعه للأسرى الأرمن والبيزنطيين الذين بلغ عددهم ستة عشر ألفاً رقيقاً في أسواق حلب، ويبدو أن بوهيمند الثالث لم يتدخل إلا بعد فرار توماس، الوصي على روبن، إلى أنطاكية وحثه للأمير بوهيمند على التدخل، وحينما عزم بوهيمند على ذلك فإن الملك عموري سارع إلى الشمال لمرافقته في تلك الحرب، ويبرر وليم الصوري هذا التصرف من قبل الملك بأنه حرصاً من الملك على عدم إهدار قوى المسيحيين في محاربة بعضهم بعضاً، توفيراً لقواهم التي ينبغي أن توجه إلى محاربة المسلمين في مصر والشام. وكما يبين وليم الصوري حرص عموري على اللجوء إلى الأسلوب السلمي في إقناع مليح بالعدول عن تحالفه مع نورالدين وبالكف عن إهانة المسيحيين، ولذا فقد ظل عموري يراسل مليح حتى أيقن مراوغة مليح له، وعدم استعداده للتفاوض معه، فشن الحرب عليه بمساعدة بوهيمند الثالث، فأحرق المزارع ودمر الحصون، ولكنه اضطر إلى العودة للمملكة حينما علم بمحاصرة نورالدين لقلعة الكرك، أي أن الملك عموري عاد من حملته ضد مليح دون أن يحرز نجاحاً محدداً وذلك لأنه أنهاها على وجه السرعة[2].

أما رواية ميخائيل السرياني فإنها أبرزت دور مهم للملك عموري في محاربة مليح يفوق ما قدمه وليم الصوري عن الحدث ذاته؛ حيث يُقر ميخائيل بانتصار عموري على مليح وحلفائه الأتراك في المعركة التي فر منها الأتراك، تاركين ورائهم الأمير مليح وحده في مواجهة الملك عموري، فانسحب مليح إلى أحد حصونه

([1]) Kinnamos, *Deeds*, pp.215-217.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥١-١٥٢.

المجاورة، فلم يتركه عموري حتى ضيق عليه الحصار به، بحيث لم يعد مليح قادراً على مواجهة الملك وعندها طلب الصلح واعتذر للملك عموري وندم أمامه على ما فعله[1]، ولكن لم يُبد ميخائيل السرياني أي دور لنورالدين، خصوصاً ضغطه على حصن الكرك؛ ذلك أن وليم الصوري يؤكد قيام نورالدين بمهاجمة الكرك في الوقت الذي هاجم فيه عموري مليح في قيليقية، ولم يكتف نورالدين بذلك وإنما بعث إلى صلاح الدين لمقابلته عند ذلك الحصن، وقد سبق صلاح الدين في الوصول إلى الحصن وفرض عليه حصاراً شديداً، يُقرّ ابن الأثير بعدها بأنه أصبح على وشك الاستسلام لصلاح الدين، بيد أنه انسحب عائداً إلى مصر، بسبب وصوله أخباراً تتعلق بمرض أبيه، ناهيك عما علمه من تآمر بقايا الشيعة ومؤيدوهم للقضاء على نفوذه في مصر، على حين يشير ابن الأثير إلى خوف صلاح الدين من مقابلة نورالدين حتى لا يخلعه من حكم مصر.

على أية حال نجح ما قام به نورالدين وصلاح الدين - بغض النظر عن رؤية ابن الأثير لأسباب انسحاب صلاح الدين - في الضغط على عموري بحيث تخلى الأخير عن محاصرة مليح، واضطر إلى الانسحاب لإنقاذ مملكته أولاً، وسواء التزم عموري في معاهدته مع مانويل بمحاربة مليح أم كان ذلك تحركاً من جانب عموري وحده لإثارة همة مانويل وتحفيزه على إرسال المساعدة فإن ما قام به عموري تجاه مليح عبّرَ عن حسن نيته، وحينما اضطرته ظروف المملكة إلى ترك حصار مليح فقد كان عموري مثله مثل مانويل الذي اضطرته ظروف الإمبراطورية في الغرب إلى الانسحاب، أما مليح فإنه لم يستمر في حكمه لقيليقية طويلاً، ذلك أنه سقط عقب وفاة حليفه نورالدين عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ؛ إذ قتله قادته وبعدها بقليل تحسنت علاقة

([1]) Michel Le Syrien, *Chronique*, p.331.

ويشير كيناموس إلى أن عموري وبوهيمند كبدا مليح ونورالدين خسائر فادحة، ولكنه يؤخر دورهما في التقدم صوب مليح بحيث لم يتوجها إلى محاربة مليح إلا بعد قضاء مانويل على تحالف نورالدين مع قلج أرسلان سلطان قونية. انظر:

Kinnamos, *Deeds*, p.217.

الإمبراطورية بالحاكم الأرمني الجديد روبن الثالث (١١٧٥م - ١١٨٧م)[١].

والواقع أن الأحداث الأخيرة تبرز مفارقة، تكاد تعلن للملك عموري عن ضرورة التخلي عن باقي أطماعه في الاستيلاء على مصر أو أي موضع آخر؛ ذلك أن فشل كلاً من عموري ومانويل في التصدي لنور الدين في شمال بلاد الشام، بعد هزيمة الجيوش البيزنطية على يد مليح الذي ساعده نورالدين من ناحية، وبضغط الأخير على عموري لترك حصاره لمليح مؤخراً من ناحية أخرى، كل ذلك يُبرز أمراً لم يكن في بال عموري وهو أنه لم يستطع النجاح في مصر بسبب تهديد نورالدين للجبهة الشمالية للمملكة والإمارات الصليبية في بلاد الشام، ووقوف نورالدين إلى جانب صلاح الدين ضده في مصر أيضاً، فما باله إذا خرج نورالدين في شمال بلاد الشام ووسطها وقابله صلاح الدين بجيش مصر من ناحية الجنوب، وذلك للقضاء على عموري في عقر داره، فالواضح أن عموري سيتخذ الوضع الدفاعي؛ لأنه سبق وفشل بالفعل في التصدي لأحدهما فما ظنه إذا ما اتحد الاثنان ضده.

وعلى الرغم من إشارة تطور الأحداث في شمال بلاد الشام على ذلك النحو إلى ضرورة حفاظ عموري على تحالفه مع الإمبراطورية البيزنطية فقد كان على عموري ألا يتوقع حصوله على المساعدة البيزنطية في ظل الصعوبات التي تواجهها الإمبراطورية البيزنطية، سواء في الغرب من قبل البنادقة والألمان وصقلية، أم في الشرق في آسيا الصغرى وبلاد الشام من قبل المسلمين عموماً وسلاجقة قونية خصوصاً التي ستجعلها عاجزة عن توجيه المساعدة التي يرغب فيها عموري، على الأقل في الوقت الراهن، ولذا فإن عموري بعث باستغاثة أخيرة إلى الغرب عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ - كما أسلف الباحث - حثّ فيها ملكي فرنسا وإنجلترا على تسوية خلافاتهما بحيث يتسنى لهما مساندته في تلك الظروف، وربما هي الظروف ذاتها التي جعلته يفكر في التحالف مع وليم الثاني ملك صقلية الذي كان آنذاك في وضع عداء مع

---

(١) راجع في ذلك: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١١٩؛ الباهر، ص١٦٩. وأيضاً:
Smbat, *La Chronique*, p.54.

مانويل[1].

وبالرغم من الفشل العسكري والدبلوماسي الذي واجهته سياسة عموري الخارجية أمام المسلمين في هذه الحقبة فإنه لم يقف مكتوفي الأيدي، بل حاول اختراق الجبهة الإسلامية مرة أخرى، حينما قدمت له الأحداث فرصة سياسية على طبق من فضة، وذلك ما يبدو من معالجة محاولة عموري التحالف مع الحشاشين في بلاد الشام ضد نورالدين، ومرة أخرى حينما راسله المتآمرون في القاهرة وعلى رأسهم عمارة اليمني، يلتمسون معاونته في القضاء على صلاح الدين في مصر.

وبداية يجب تحديد نقطة مهمة وهي صعوبة إثبات وجود ترابط بين مفاوضات الملك عموري مع الحشاشين في بلاد الشام وبين مؤامرة عمارة اليمني في القاهرة، بسبب إغفال وليم الصوري – الذي انفرد برواية مفاوضات عموري مع الحشاشين – الإشارة إلى أي دور للملك عموري في مؤامرة عمارة، بل إنه لم يشر لأي صلة تربط عموري بأحداث مهاجمة الأسطول الصقلي لمدينة الإسكندرية بوصف عموري حليفاً لوليم الثاني، والراجح أن وفاة عموري قبل مهاجمة وليم للإسكندرية وفشل وليم في مهاجمته لها، هو ما دفع بوليم الصوري إلى اعتبار ذلك الحادث قليل الأهمية وأنه لم يكن مؤثراً، ولذا فقد تحاش وليم الصوري التعرض لأية علاقة تربط بين عموري والمتآمرين في القاهرة، ومن ثم مفاوضات الحشاشين مع عموري ومؤامرة عمارة في القاهرة التي كان الملك وليم الثاني أحد أطرافها، وعلى نقيض ما تجاهله وليم الصوري ربطت المصادر الإسلامية -وعلى رأسها الروضتين لأبي شامة- بين محاولة حصول عمارة على مساعدة الحشاشين وبين اتصاله بالملك عموري، ولكن لم يربط أبو شامة بين اتصال الحشاشين بعموري واتصال عمارة بهم.

جاء توجه الحشاشين[2] إلى الملك عموري في خريف عام ١١٧٣م/أوائل

([1]) Rohricht, *Regesta*, no.497.

([2]) عن فرقة الحشاشين انظر:

Benjamin of Tudela, *The Itinerary*, p.16; Joannes Phocas, *The Pilgrimage*, pp.8-9.

وانظر أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٥-١٥٦؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت

٥٦٩هـ، في وقت حرج بالنسبة لسياسة الملك عموري، ذلك أن إسقاط الخلافة الفاطمية في القاهرة١١٧١م/٥٦٧هـ والدعاء للخلفاء العباسيين السنة بعد انقطاع دام لأكثر من قرنين، كان يعني بالنسبة للمملكة الصليبية إزالة الحواجز المذهبية القائمة بين مسلمي بلاد الشام ومصر تدريجياً، مما يُصعّب من موقف المملكة، ولاريب أن نقمة الحشاشين على سقوط الخلافة الفاطمية، القبلة الكبرى للفرق الشيعية في العالم الإسلامي، كانت بادية، بحيث ربط عدد من المؤرخين المحدثين بين الحدثين، وهما

المقدس، ص١٢٨-١٢٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٠٩.

ويطلق لقب الباطنية على فرق شيعية خالفت التعاليم الإسلامية، حيث انتشرت دعوتهم في بلاد فارس منذ أواخر القرن الحادي عشر على أثر الضعف الذي ساد البلاد من جراء استشراء الحروب بين ورثة السلطان السلجوقي ملكشاه، واستولوا على عدة قلاع حصينة أشهرها قلعة ألموت (١٠٨٩م/٤٨٣هـ) في طبرستان بالقرب من بحر قزوين التي اتخذت على عهد الحسن الصبّاح - أشهر دعاة الباطنية - مركزاً لحركتهم، وتمكن الحسن من تخريج دفعات عدة من الفداوية الذين قاموا بعمليات الاغتيال المشهورة لقادة العالم الإسلامي وزعمائه ثم للصليبيين فيما بعد. وقد سمى الإسماعيلية أو الباطنية أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، ومن الناس من يسميهم الباطنية ومنهم من يسميهم الملاحدة، وجوهر معتقدهم التناسخ وانتشرت فرقة هؤلاء في بلاد الشام حيث عرفوا بها بالحشاشين، على حين أطلق على من بقلعة ألموت منهم الباطنية الملاحدة، بينما عرفوا في خراسان بالتعليمية، واحتال هؤلاء على أحكام الشريعة الإسلامية، والمرجح أنهم كانوا يسعون للوصول إلى الملك. لمزيد من التفاصيل انظر:

الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المتنبي، بغداد، (د.ت)، ص٢٠٣. وأيضاً: علية الجنزوري: الحروب الصليبية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٢٢٦؛ محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٣١؛ محمد محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الإسكندرية،١٩٨٠م، ص٤٦٥؛ السيد محمد العزاوي:فرقة النزارية، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٠، ص١٧- ٣٩ ،٢٥٩-٢٦١؛ محمد عثمان الخشت: حركة الحشاشين، مكتبة ابن سينا، ١٩٨٨؛ عثمان عبد الحميد العشري: الإسماعيليون في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، رقم ١١٧٥، ص٨١ – ٨٥.

وعن ربط المحدثين بين توجه الحشاشين إلى عموري وإسقاط الخلافة الفاطمية راجع: حامد زيان: الصراع السياسي، ص٩٨-٩٩؛ رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٤١؛ بردج: الحروب الصليبية، ص١٧٨-١٧٩.وأيضاً:

Rohricht, *Amalrich I*, p.479.

سقوط الخلافة الفاطمية في القاهرة ١١٧١م/٥٦٧هـ وتوجه الحشاشين للتحالف مع عموري.

وقد عرض عبدالله مبعوث الحشاشين - نيابة عن شيخ الجبل رشيد الدين سنان[١]- على الملك عموري اعتناق المسيحية والتحالف مع الملك، مقابل عدم مطالبة الداوية في طرابلس لهم بالمبلغ المالي المقرر عليهم سنوياً والذي يُقدر بألفي قطعة ذهبية، ويشير وليم الصوري إلى شدة فرح الملك عموري بفكرة هذا التحالف، بحيث قضى أياماً عديدة يتفاوض فيها مع عبدالله فيما يجب عمله، بيد أن وليم الصوري لم يقدم أية شروط محددة، بل لم يذكر في أي أمر دارت المفاوضات، بيد أن عموري كان آنذاك في حاجة ماسة لمثل هذا التحالف؛ إذ سبق وفشل في الاحتفاظ بتحالفه مع شاور في مصر، حقاً لا يمكن مقارنة قوة الحشاشين بقوة مصر في فترة شاور، بيد أن أهداف عموري في تلك اللحظة كانت متواضعة، وسوف يتيح له هذا التحالف اكتساب حليف في حالة عداء مع نورالدين[٢].

وكان الحشاشون هم الآخرون في عوز إلى هذا التحالف للتصدي مع عموري لنورالدين، وقد أضُيف إلى عوامل عداء الحشاشين لنورالدين، قضائه على أنصار المذهب الشيعي في حلب، وإسقاطه للخلافة الفاطمية في مصر، وذلك بأوامره المستمرة إلى صلاح الدين في هذا الشأن، ذلك أن نورالدين لم يبعث نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر عام ١١٧١م/٥٦٧هـ إلا لإقناع صلاح الدين بالمسارعة في اتخاذ هذا الإجراء، وبالرغم من شدة خوف صلاح الدين هو وقادته من الإقدام على عمل خطير كهذا، ربما يثير المصريين ضده، فقد تم تنفيذه في هدوء، ولذا فقد

---

(١) هو رشيد الدين سنان بن سليمان صاحب دعوة الحشاشين في بلاد الشام، وهو من أهل البصرة وقد أظهر من النبوغ والذكاء في قلعة ألموت ما أهله لتولي زعامة الحشاشين في بلاد الشام بداية من عام١١٦٢م/٥٥٧هـ، وقد ظل يشغل هذا المنصب على مدى ثلاثين عاماً. راجع: ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص١١٧. راجع أيضاً: محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٣٥.حا.٣٠.

(٢) عن عداء هذه الطائفة الشديد لنورالدين انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥١٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥، ص١٨٥-١٨٧.

حمّل الحشاشون نورالدين مسؤولية القضاء على الدولة الكبرى للشيعة، وبذلك زاد نورالدين من معادتهم له، خصوصاً أنه ضيق عليهم بمهاجمته لحصونهم في بلاد الشام وبخاصة في جبال النصيرية[1].

ويتضح من تسليط الضوء على رواية وليم الصوري أنه ركز بشدة على العامل الديني في مفاوضات الملك عموري مع الحشاشين؛ لأن الكنيسة المسيحية سوف تزدهر بانضمام هؤلاء إليها، لكنه عاد يذكر ما يناقض هذا القول، حينما أكد ربط الحشاشين بين إسقاط المبلغ المقرر عليهم وبين اعتناقهم للمسيحية، وهذا في حد ذاته ينم عن عدم فهم وليم لعقلية هذه الطائفة التي استغلت كافة الوسائل للإعلاء من شأن نفسها، وبررت لرجالها كافة التصرفات أياً كانت حمقاء لتحقيق أهدافها، ولذا فقد اتهمها المسلمون المعاصرون بالإلحاد، وبأنه لم يكن لأنصارها دين، وإنما تمثل دينهم الوحيد في إعلاء شأن جماعتهم، ولذا فإنه حينما تجمدت مفاوضات الملك عموري معهم، على أثر قيام أحد فرسان الداوية باغتيال رسول الحشاشين في رحلة عودته من المملكة إلى شيخ الجبل فإن عموري صب جام غضبه على مرتكب حادث الاغتيال، وقد علل وليم الصوري غضب عموري وثورته بأنه كان يخشى من انهيار نفوذ الكنيسة وسطوتها، بيد أن الواقع يخالف ذلك، بسبب سعي الملك إلى اتخاذ حليف قوي من بين المسلمين ليعرف منه أسرار البلاد ومسالكها.

أياً ما حدث فقد فشل عموري في تحقق أهدافه، وذلك لأن تعارض المصالح

([1]) يشير الوصف الذي قدمه وليم الصوري عن الحشاشين إلى أنهم يتمركزون في جبال النصيرية، ويبلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً، وهم يملكون عشرة حصون قوية أخطرها مناعة القدموس ومصياف، ودقق وليم وصفه أكثر محدداً إياهم بالذين يقومون بالعمليات الفدائية أو الاغتيالات السياسية – إن صح التعبير- ولا يأتمرون بأمر أو طاعة إلا لشيخ الجبل رشيد الدين سنان الذي وصلت جماعة الحشاشين في عصره إلى مدى من القوة لم تصل إليه من قبل في بلاد الشام. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٥-١٥٦. وأيضاً: الأنصاري: نخبة الدهر، ص٢٠٣. وكذلك: علية الجنزوري: الحروب الصليبية، ١٩٩٩، ص٢٢٦؛ محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٣١؛ محمد الشيخ: الإمارات العربية، ص٤٦٥؛ السيد محمد العزاوي: فرقة النزارية، ص١٧ - ٣٩ ، ٢٥٩-٢٦١؛ عثمان العشري: الإسماعيليون في بلاد الشام، ص٨١–٨٥.

داخل المملكة وجماعة الداوية في طرابلس حال دون إتمام المشروع، وهو التعارض الذي يبرزه وليم الصوري على أنه إهانة للكرامة الملكية وسطوتها في الشرق؛ ففي سبيل احتفاظ الداوية بالمبلغ المالي الذي طالب شيخ الجبل بإسقاطه عن جماعته من قبل الداوية، قرر الداوية التدخل لإفشال عرض الحشاشين، هذا بالرغم من عزم الملك عموري على تعويض الداوية عن هذا المبلغ من الخزانة الملكية، وقد ترتب على سوء تصرف الداوية مقتل رسول الحشاشين[١].

ويتضح من الرد الحاد لفعل الملك عموري الأهمية التي علقها على ذلك المشروع، بحيث قرر معاقبة القاتل، ومطالبة هيو أوف سانت أماند، مقدم الداوية في طرابلس "بتقديم الترضية الكافية للملك والمملكة معاً عن هذه الفعلة النكراء الدنسة"، ولم تهدأ ثائرته إلا بزجه للقاتل في السجن، متعدياً بذلك على أحد قوانين هذه الجماعة التي لا تسمح لأحد بمعاقبة أفرادها سوى البابا ذاته[٢]، وكان الأمر أعمق من ذلك في خطورته على ضوء أن عموري كان قد بعث برسالة إلى لويس السابع في العام السابق ١١٧٢م/ ٥٦٧هـ يبدي له أهمية الداوية في دعمهم للملك، ويلتمس من الملك لويس السابع مساندتهم[٣]، بما يعني أيضاً أن عموري كان يحاول - بمعاقبته للقاتل - برغم علاقته القوية بالداوية أن يجد لنفسه مبرراً عما حدث أمام شيخ الجبل، بحيث لا تفشل المفاوضات التي ما زالت في بدايتها.

ويُفهم من عبارة وليم الصوري التي يقول فيها "لقد كادت الجريمة التي اقترفت ضد رسول الحشاشين أن تؤدي بالمملكة كلها إلى خراب حقيقي وصدع لا يمكن رأبه" أن الملك كان يخشى على نفسه وعلى مملكته من رد فعل شيخ الجبل، بحيث لا يُستبعد أنه كان يخشى من مهاجمة شيخ الجبل للمملكة، أو أن يتعدى على الملك ذاته، وأن إصرار عموري على معاقبة الجاني دليل على محاولته حفظ ماء وجهه أمام شيخ الجبل على أمل بقاء العرض سارياً، في محاولة منه لاحتواء الموقف، وعلى الرغم

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٨.

(3) Amalrici, Hierusalem Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.157.

من ذلك فقد أكد وليم الصوري صراحة بقاء المفاوضات معلقة حتى مات عموري عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ[١].

أما مؤامرة عمارة اليمني فقد كانت من تدبير عمارة وغيره ممن تآمروا على صلاح الدين، من بقايا النفوذ الشيعي في مصر، ولم يكن عمارة شيعياً في مذهبه، بل كان يرفض هذا المذهب صراحة ولم ينجح آل رزيك في فترة وزارتهم في جذبه إلى التشيع، وإنما ظل سنياً حتى اللحظة التي صُلب فيها، ولكن يبدو تبريره الذي أدلى به إلى صلاح الدين عن سبب قيامه بالمؤامرة - قبل صلبه - معقولاً وهو أن سقوط الدولة الفاطمية ضيّع على عمارة، شاعر البلاط الفاطمي وأسير كرم الخلفاء والوزراء الفاطميين، ومن على شاكلته من المتعيشين على الفاطميين، أسباب الرزق التي كانت مفتوحة لهم بحيث صاروا يعانون من شظف العيش في ظل حكم صلاح الدين، مثلما لم يعودوا مقربين من الحكام كسالف عهدهم[٢].

وشملت مؤامرة عمارة اليمني كثيرين من المناصرين للفاطميين ومن هؤلاء ابن قرجلة وخاله، وهما الذين أوكلا إليهما مهمة الاتصال بالحشاشين[٣]، وزين الدولة شبرام، والأعز العوريس، والقاضي ابن عبد الصمد القشة، أحد أمراء مصر في العصر الفاطمي، وداعي الدعاة أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل – الذي كانت له حظوة كبيرة لدى الفاطميين - ممن مالأ "قوماً على البيعة لبعض أولاد العاضد، ليبلغوا ما تخيلوه من المقاصد، وسولوه من المكايد[٤]"، وقاضي القضاة ابن عبد

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٨-١٥٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦١-٥٦٥، ٥٦٩-٥٧٠، ٥٩٨-٥٩٩، ٥٧١-٥٧٣؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٥؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٩.

(٣) منذ أن ظهر ابن قرجلة على مسرح أحداث مصر في الفترة الأخيرة وهو يتخذ الجانب المخالف للحاكم؛ إذ وقف مع شاور ضد ضرغام، ثم مع عموري ضد شاور، والآن مع عموري ضد صلاح الدين وكذا الحشاشين؛ لأنه هو وخاله كانا رسل عمارة إليهم، وقد أقام هو وخاله بعد فشل المؤامرة في المملكة. انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٢.

(٤) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٧١؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٥.

القوي، وبقايا بني رزيك ومن بقي من أسرة شاور وغيرهم من حاشية القصر[١]، فضلاً عن استمالة عمارة لبعض قادة صلاح الدين وجنوده، ربما عدداً ليس بالقليل، كان مقرراً أن يتخلوا عن صلاح الدين في الوقت الذي يثور فيه هؤلاء المتآمرون[٢]، وقد قسموا تركة مصر فيما بينهم، على أن يلي الخلافة أحد أبناء العاضد أو أحد إخوته، وأما الوزارة والقضاء فقد تنازع عليهما بنو شاور وبنو رزيك[٣].

واتفق رأي هؤلاء المتآمرون على الاستعانة بقوى خارجية، فقر رأيهم على عموري ملك بيت المقدس، ووليم الثاني ملك صقلية "اتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد[٤]". فأما عن استعانتهم بالملك عموري فإن الباحث مضطر للاعتماد على المصادر العربية تقريباً في عرض مثل هذا الموضوع، في ظل عدم تعرض وليم الصوري لهذه الإشكالية؛ إذ تشير المصادر العربية إلى أن المتآمرين هم الذين راسلوا عموري "وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان[٥]"، ويشير ذلك بوضوح إلى أن المتآمرين في القاهرة هم الذين استهلوا مراسلة عموري، ثم تلا ذلك تبادل المراسلات بين الطرفين.

وقد أشار صلاح الدين في أحد خطاباته إلى نورالدين التي تحدث فيها عن كثرة المراسلات بين طرفي المؤامرة ومن ذلك "وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى التي يُوسّعُون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم

---

(١) ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦١-٥٦٥، ٥٧٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٩.

(٣) ومما ساقه ابن الأثير في ذلك الأمر *"ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة، إلا أن بني رزيك قالوا يكون الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا"*. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٤-٥٦٥.

الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستئثار في مراسلتهم والتحيل في مفاوضتهم، سير "جرج" كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً، وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذا المدد رسل تتردد وكتب إلى الفرنج تتجدد[1]".

وتأكد لدى صلاح الدين -عن طريق عيونه في المملكة- أن الملك عموري هو الذي بعث بذلك الرسول المدعو جرج، وأنه كان يتحيل الحيل على صلاح الدين في مقابلة المتآمرين، سواء بالخروج لمقابلتهم ليلاً، أو ادعائه الذهاب إلى الكنيسة نهاراً، أو عن طريق بعض المسيحيين الوسطاء، وقد تركه صلاح الدين يقوم بذلك حتى يتسنى له جمع أطراف المؤامرة وخيوطها في يديه، بينما زج زين الدين بن نجا الواعظ وسط المتآمرين في القاهرة ليأتيه بما يتفقون عليه أولاً فأول، وليكشف له عن ما يتآمرون عليه، ووعده بمكافأة كبيرة، وفي الوقت ذاته فإنه دس على "جرج" - رسول عموري- بعض المسيحيين ممن يثق بهم صلاح الدين فأخبرهم "جرج" بتفاصيل المؤامرة، وكان مما بعث به المتآمرون إلى عموري مع رسوله جرج ما فحواهُ "أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم وعلى قرب موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلاناً من عنده وبقي في البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره من الثورة[2]".

وتفصح العبارة الأخيرة عن خطورة المعلومات التي كانوا يراسلون بها عموري؛ لأنها تكشف مصر بعساكرها وجيوشها أمام الملك عموري وكأنه يعيش بداخلها، ومما دبره المتآمرون أيضاً للانفراد بصلاح الدين إبعادهم لشيركوه أخو صلاح الدين عن مصر، وقد تكفل بهذه المهمة عمارة اليمني، والواقع أن حثّ الأخير لتورانشاه على غزو اليمن نبع عن كون عمارة يمني الأصل، وعليه فقد سعى عمارة

([1]) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٣.

([2]) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٥.

إلى إطماع تورانشاه في ثراء اليمن، خصوصاً أن الأخير كان يضيق ذرعاً بفقر إقطاعه في قوص، وهنا تلاقى ما سعى إليه عمارة مع ما في نفس تورانشاه، وبالتالي يقل عدد المساندين لصلاح الدين في المواجهة الأخيرة "وبلغني[١] أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر؛ لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين وإبعاداً لأخيه وناصريه[٢]"، وأكد ابن الأثير أهمية ما قام به عمارة من حثه لتورانشاه على الرحيل إلى اليمن؛ لأنه يكفل للمتآمرين أمراً آخر وهو إزاحة من قد يجتمع عليه الناس بعد التخلص من صلاح الدين ومن ثم تصفو لهم مصر ولمساندیهم الجدد[٣].

هكذا تم الاتصال بالملك عموري، ولكن لم تتح المصادر كيفية اتصال المتآمرين بالملك وليم الثاني، ولم يُشِرْ وليم الصوري إلى أي علاقة للملك عموري بالملك وليم خلال حديثه عن مهاجمة الأخير للإسكندرية[٤]، بيد أن صمت وليم لا يعني عدم حدوث ذلك، خصوصاً أن المتآمرين طلبوا من عموري إرسال الأسطول لمهاجمة مصر بحراً، بينما يهاجمها عموري براً[٥]، وعليه فإنه يُرجح كون عموري الحلقة التي ربطت بين المتآمرين وبين وليم الثاني. وعن وسيلة اتصال عموري بالملك وليم يُرجح ويروزوسكي Wieruszowskiمرور سفارة الملك عموري على بالرمو في طريقها للغرب الأوربي عام ١١٧٣م/٥٦٨هـ[٦] وأنها استطاعت الحصول على موافقة وليم الثاني في القيام بعمل عسكري مع عموري ضد مصر من البحر[٧].

ويُبرز القلقشندي - عن خطاب للقاضي الفاضل - عوامل اشتراك وليم الثاني في المؤامرة على مصر، وذلك بسبب سوء علاقة الأخير بالإمبراطورية البيزنطية

---

(١) الحديث هنا لأبي شامة.
(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣، ١٢٩.
(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٧٦-١٧٧.
(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٣-٥٦٤.
(6) Rohricht, *Regesta*, no. 497; RHGF, XII, p.444.
(7) Wieruszowski, *The Norman*, p.34.

مما جعله يستظهر بقوته تحدياً لما فشل فيه مانويل بعد فشل حصاره هو وعموري لدمياط عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ"حين علم أن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغُلبا وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوته المستقلة بمفردها، وعزمته القائمة بمجردها، فعمر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه[١]". وأما السبب الذي وتَّرَ علاقات الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى بمملكة صقلية فبسبب سحب مانويل عرض زواج ابنته مارية من وليم الثاني دون أن يقدم تبريراً أو حتى مجرد الاعتذار للأخير، ربما في محاولة من مانويل لاكتساب صداقة فردريك بربروسا بتقديم العرض ذاته لهنري ابن بربروسا[٢]، وعليه فقد قرر وليم الثاني مشاركة عموري في تلك الحملة، ثم بدأت الترتيبات بعد ذلك مباشرة، ويشير إسحق عبيد إلى انزعاج مانويل من اتفاق عموري مع وليم الثاني الذي عده خرقاً للمعاهدة التي سبق وأبرمها عموري مع مانويل في بيزنطة عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، ولذا فقد قام مانويل بإبلاغ صلاح الدين بأنباء تحركات الحملة الصقلية[٣].

على أية حال بدأت الترتيبات مع الجبهة الداخلية في مصر منذ قيام صلاح الدين بحصار الكرك في الأول من أبريل١١٧٣م/منتصف شعبان ٥٦٨هـ حينما راسل المتآمرون عموري لإخباره بخلو مصر من قوتها الأساسية، وأنها فرصة ذهبية لمهاجمتها من الخارج، بينما يثور المتآمرون في الداخل وقت تقدم عموري إلى أيلة أو صدر، وفي الوقت ذاته حرضوا عموري على إرسال أسطوله إلى أحد الثغور المصرية، حتى تتشتت جهود صلاح الدين[٤].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٩٢-٩٣.

ويضاف إلى أسباب اشتراك وليم الثاني في المؤامرة رغبته في السيطرة على مصر بما لها من أهمية اقتصادية واستراتيجية، ربما قبل استيلاء بيزنطة عليها بمقتضى معاهدتها مع عموري عام ١١٧١م/٥٦٦هـ التي ظلت سارية حتى عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ. انظر: محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص٧٤-٧٦.

(٢) انظر: عبدالعزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص١٠١-١٠٣.

(٣) إسحاق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢٣٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣، ١٢٩. وأيضاً: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٤-

ولم يكتف المتآمرون بمراسلتهم للملك عموري وإنما حاولوا توسيع دائرة التآمر، بما بدا من اتصالهم بشيخ الجبل رشيد الدين سنان شيخ الحشاشين في بلاد الشام، يدعونه لمؤازرتهم سواء بإمدادهم بالقوات، أو بزج من يقوم بالتخلص من صلاح الدين "وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهله خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصرة، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيلة، أو يبّيت له مكيدة وحيلة... وكان الرسول إليهم من المصريين، خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج[1]". أما الأمر المحير فهو أنه بالرغم من التفاصيل الجمة التي انفرد بها وليم الصوري عن علاقة عموري بالحشاشين فإنه لم يُشر إلى ارتباط ذلك بأمر آخر؛ لأنه لم يُشر أساساً إلى محاولة الاتصال بين عموري والمتآمرين في القاهرة، أو بوليم الثاني ملك صقلية وهذا ما يدفع الباحث إلى التساؤل: هل كان ثمة ترابط بين محاولة الاتصال التي قام بها الحشاشون بالملك عموري وبين محاولة عمارة الاتصال بعموري أيضاً؟

ويدفع هذا التساؤل بالباحث إلى تحديد التواريخ التي حدثت فيها تلك الاتصالات بين الأطراف الثلاثة؛ إذ اتصل المتآمرون بالملك عموري في الأول من أبريل ١١٧٣م/منتصف شعبان ٥٦٨هـ، بيد أن تلك كانت البداية ثم توالت الأحداث، حيث رحل تورانشاه إلى اليمن في فبراير١١٧٤م/رجب ٥٦٩هـ، وقد صلب عمارة والمتآمرون بعد اكتشاف صلاح الدين لهم في ٦ من أبريل ٢/١١٧٤ من رمضان ٥٦٩هـ، ثم هاجم الأسطول الصقلي الإسكندرية في ٢٨من يوليو١١٧٤م/٢٦ من ذي الحجة٥٦٩هـ، أما محاولة اتصال الحشاشين بالملك عموري فلم يجعل لها وليم الصوري تاريخاً محدداً، وإنما جعلها ما بين يوليو ١١٧٣م/ذي الحجة ٥٦٨هـ ومايو ١١٧٤م/شوال ٥٦٩هـ حينما ذكرها عقب أحداث مهاجمة صلاح الدين للملك عموري في حملته على الكرك والبقاع، وفي الوقت ذاته لم يمتد الأجل بالملك عموري ليطيل

٥٦٥.

(1) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٥.

أمد مفاوضاته المعلقة معهم وذلك لوفاته في الحادي عشر من يوليو ١١٧٤م/العاشر من ذي الحجة٥٦٩هـ[١].

وكما هو واضح من التواريخ أنها متقاربة بحيث تكاد تكون الفروق شهوراً وأياماً، بينما كان عرض المتآمرين على عموري في القاهرة قائماً حينما وصلت رسل الحشاشين إلى عموري يعرضون عليه العرض ذاته، بيد أن الحلقة الناقصة هي الوقت الذي اتصل فيه المتآمرون في القاهرة بالحشاشين في بلاد الشام، وذلك لأن عموري لم يتصل بالحشاشين، وإنما هم الذين اتصلوا به، ولم يكن دافعهم مقاومة صلاح الدين وإنما عرض خاص ولغرض معين مثلما أسلف الباحث، ولأن عرض تحالف الحشاشين فشل فلم تتطور العلاقة إلى حد ظهورهم كأحد أطراف المؤامرة من قبل عموري وإنما لاتصال المتآمرين في القاهرة بهم.

وأما النقطة المهمة فهي عدم استجابة الحشاشين للمتآمرين في القاهرة بناء على صمت المصادر، خصوصاً أن قضاء صلاح الدين على أطراف المؤامرة لم يكن تالياً لمراسلتهم للحشاشين، وإنما بعد مراسلتهم لهم بحوالي ثلاثة عشر شهراً تقريباً[٢]، وبدلاً من محاولة الحشاشين الرد على رسالة المتآمرين في القاهرة فإنهم توجهوا لمحالفة الملك عموري، وعليه فإن الباحث يتساءل: هل كان رسل المتآمرين في القاهرة إلى الحشاشين يحملون ما يعني أنهم على اتصال بالملك عموري وأنهم أشاروا على الشيخ سنان بالتوجه إلى عموري والتنسيق معه، مثلما نسق عموري مع وليم الثاني ملك صقلية؟ لم تقدم المصادر شيئاً عن ذلك، ربما لفشل مشروع عموري مع الحشاشين، ومن جهة أخرى يُلقي صمت المصادر حول عدم استجابة الحشاشين للمتآمرين في القاهرة بغموض كبير يتعذر معه تأكيد هذه الإشكالية[٣].

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٨-١٥٩.

(٢) انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٥٦٢-٥٦٥.

(٣) وثمة ملاحظة يمكن التوقف عندها قليلاً وهي اقتران رواية أبو شامة عن الأصفهاني في حديثها عن الأسطول الصقلي بقيام كنز الدولة بالتمرد في أسوان على سلطان صلاح الدين، وينسب هذا التمرد إلى شخص يدعى كنز الدولة، قام بجمع الكثيرين من السودانيين في أسوان، وزعم أنه سوف يعيد الدولة الفاطمية إلى مصر، فاجتمع إليه الكثيرون من الناس، فتحرك بهم وقتل بعض أمراء

وبناء على ذلك ضمت مؤامرة عمارة اليمني المتآمرين من بقايا النفوذ الشيعي في القاهرة وعموري ملك بيت المقدس، ووليم الثاني ملك صقلية، بينما فشلت مساعي المتآمرين في جذب آخرين إليهم، وقد تم من المؤامرة حتى لحظة اكتشاف صلاح الدين لها عدة خطوات منها الاتصال التام بين الأطراف الثلاثة، وتحديد اختصاصات كل طرف ودوره في المؤامرة، وتَّوحي الروايات المعاصرة باتفاق المتآمرين عل اقتسام مصر فيما بينهم وحصول عموري ووليم الثاني على مبالغ مقررة سلفاً في حالة

صلاح الدين وجنده، وتكمن الإشكالية في ربط أحد الباحثين المحدثين بين حركة الكنز وبين اتفاق عموري مع المتآمرين في القاهرة، بحيث كان التنسيق واسع المدى؛ إذ يثور الكنز في أسوان بينما يقوم الشيعة بالأمر نفسه في القاهرة وأما عموري فإنه سيتولى التحرك براً إلى مصر، على حين يصل الأسطول الصقلي إلى الإسكندرية، وبذا لا يجد صلاح الدين فرصة للفرار أو الانسحاب إلى جهة آمنة، خصوصاً أن أخيه تورانشاه تحرك إلى اليمن في فبراير١١٧٤م/رجب ٥٦٩هـ، قبل أن يكتشف صلاح الدين لعناصر المؤامرة. انظر:

Geoffrey Hindley, *Saladin*, (London, 1976), pp.68-70.

والراجح لدى الباحث أن الارتباط الذي اختلط على بعض الباحثين بين حركة الكنز ومؤامرة عمارة إنما بسبب المعاصرة الشديدة للأحداث، واقتران ذكر مواجهة صلاح الدين لهذين الحديثين بالذات في المؤلفات المعاصرة في وقت واحد، ولكنها لم تذكر وجود أي صلة أو ترابط بينهما، بمعنى أن ابن الأثير الذي أشار إلى عناصر مؤامرة عمارة اليمني، أشار فقط إلى المتآمرين في القاهرة وعموري ووليم الثاني، وأضاف أبو شامة الحشاشين إليهم، ولكنهما لم يذكرا الكنز هذا ضمن عناصر المؤامرة.راجع:ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٥.

وإذا كانت أحداث الحدثين قد بدأتا في الوقت ذاته، فإن فشل الأسطول الصقلي ورحيله في١من أغسطس١١٧٤م/غرة المحرم ٥٧٠هـ، وهو آخر من بقى من عناصر المؤامرة، ختم أحداث مؤامرة عمارة اليمني، بينما ظل صلاح الدين يقاوم حركة الكنز في أسوان حتى٦من أكتوبر١١٧٤م/٧ من صفر٥٧٠هـ؛ ففي الوقت الذي هاجم فيه الأسطول الصقلي الإسكندرية كان كنز الدولة يجمع حشوده ويقودها إلى قوص، فاستولى عليها وعلى أعمالها "*فجرد له عسكراً عظيماً، شاكي السلاح من الذين ذاقوا حلاوة الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم وقدّم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف، فكسرهم وقتل منهم خلقاً عظيماً*"، وعلى ذلك، فإن الباحث يرجح - في ضوء ما قدمته المصادر - عدم وجود صلة بين حركة الكنز ومؤامرة عموري مع المتآمرين في القاهرة.

عن حركة الكنز وقضاء صلاح الدين عليها انظر: البنداري: سنا البرق، ص٨٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٨-١٨٩؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٢٨؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٠-٥١؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٨.

مشاركتهم[1]، ولم يبق سوى تحديد وقت التحرك، أو ساعة الصفر- إن صح التعبير، ويشير ابن الأثير إلى اتفاق المتآمرين على تحديده ولكن في عبارة غامضة "وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنج[2]".

أما موقف صلاح الدين فقد بات قوياً بما علمه عن طريق جواسيسه في المملكة، ومحاولته الإيقاع برسول الملك عموري في القاهرة، واستخلاص معظم التفاصيل التي تخص جانب الملك عموري، وقد أشار صلاح الدين في خطابه إلى نورالدين إلى معرفته بالترتيبات التي أعدها المتآمرون، بما في ذلك خبر مهاجمة الأسطول الصقلي للإسكندرية وربما بالوقت الذي سيهاجمون فيه، ومن جهة أخرى كان زين الدين ابن نجا الواعظ وسط المتآمرين المصريين في القاهرة، ينقل عنهم إلى صلاح الدين تفاصيل تحركاتهم بالكامل.

حقاً أصبح زمام الأمور في يد صلاح الدين واستطاع القبض على المتآمرين في القاهرة في الوقت المناسب، ثم آل أمرهم إلى القضاة، فأفتوا جميعاً بقتلهم، فصلبهم صلاح الدين في ٦من أبريل١١٧٤م/٢من رمضان ٥٦٩هـ[3]، ولكنه لم يكن بيده حيلة تجاه الطرفين الآخرين، وهما أخطر بكثير ممن ليس لهم صلة بالداخل، وسرعان ما انهار طرفاً ثانياً في المؤامرة، وذلك بعد علم الملك عموري باكتشاف صلاح الدين لخطط المتآمرون في القاهرة وقضائه عليهم، ويبدو أن عموري لم يحاول إبلاغ وليم الثاني بذلك؛ وذلك لقصر المدة التي يُفترض معرفة عموري فيها بقضاء صلاح الدين على المتآمرين وبين وفاة عموري.

وعلاوة على ذلك فقد انشغل عموري خلال تلك الفترة القصيرة التي توسطت القضاء على المتآمرين ووفاته، بفرصة أخرى أعقبت وفاة نورالدين في١٤من مايو

---

(1) عن ترتيبات المتآمرين حول أدوارهم وأنصبتهم في مصر انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣، ١٢٩؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦٣-٥٦٥.

(2) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣.

(3) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٣-١٢٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٦١-٥٦٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٥.

١١٧٤م/١١من شوال٥٦٩هـ، وذلك بمهاجمته بانياس التابعة لنورالدين؛ إذ توجه عموري إلى بانياس فور علمه بوفاة نورالدين محاولاً استغلال ما كان يعقب وفاة أمراء المسلمين في بلاد الشام من فرقة وتنافر، وفرض عموري حصاره عليها، وقد حاول ابن المقدم بتوجيه من أرملة نورالدين إغراء عموري بقبول مبلغ من المال في مقابل رفع حصاره، بيد أن عموري رفض العرض، ليس لعلمه بأنه قادر على الاستيلاء على بانياس وإنما للحقيقة التي أقرها وليم الصوري نفسه من أن عموري كان يساوم المسلمين في الحصول على أكبر مبلغ من المال حتى يرفع الحصار، وحينما مرض عموري واشتدت عليه آلامه فإنه قرر قبول المال ورفع الحصار[١]، ولذا فإنه ربما كان انشغال عموري في حصار بانياس هو الذي جعله لا يرسل إلى وليم الثاني بأخبار انهيار المؤامرة عقب اكتشاف صلاح الدين لها.

وعلى افتراض أن وليم الثاني كان يعلم بما حدث في القاهرة فالراجح أنه حينما ظهر أمام الإسكندرية في ٢٨من يوليو ١١٧٤م/ ٢٦من ذي الحجة ٥٦٩هـ فإنه لم يكن يعلم بوفاة الملك عموري، بما يقضي على أي أمل في الحصول على مساعدته، بيد أن ابن الأثير يشير إلى أنه لم يكن يعلم بما حدث للمتآمرين في القاهرة[٢]، ومن ثم فلم يعرف شيئاً عن عدم عزم عموري على المشاركة، وإلا لما غامر وليم الثاني بأسطوله الضخم وجيشه الكبير في مغامرة خطيرة كهذه[٣].

---

(١) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٥٦-١٥٩، ١٦٠-١٦١؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٩-١٣٠؛ ابن شداد: النوادر، ص٣٠؛ البنداري: سنا البرق، ص٣٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٨٠، ٥٨٩؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٤.

(٣) وصل وليم الثاني إلى الإسكندرية في ٢٨من يوليو/٢٦من ذي الحجة، وأدرك آنذاك أنه يواجه صلاح الدين دون أن يتوقع مساعدة من داخل مصر، وقد قدّرَ وليم الصوري الأسطول الصقلي بمائتي سفينة، بينما قدره المقريزي والبنداري عن رواية الأصفهاني بمائتي واثنين وثمانين ما بين شيني ومركب وسفينة، لحمل الخيول والرجال والمعدات والآلات والأزواد والمؤن، وقُدّرت الخيول بألف وخمسمائة فرس، أما عدد المقاتلين فثلاثين ألفاً، بين فارس وراجل، إضافة إلى عشرين آخرين من الرجال المتفرقين وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الحصار والدبابات والمنجنيقات، وقد بزَّ وليم الثاني بأسطوله هذا الأسطول البيزنطي الذي بعث به مانويل إلى عموري عام

١١٦٩م/٥٦٥هـ لمحاصرة دمياط ولكنه فشل، كما لا يمكن مقارنته بالأسطول الآخر الذي بعثت به بيزنطة أيضاً إلى المملكة عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ والمكون من سبعين سفينة. وقد سارع المسلمون إلى إغراق السفن التي احترقت، فأعاقت تقدم سفن الصقليين إلى الميناء، ثم استمر القتال إلى العشاء من يوم الاثنين٢٩من يوليو/ ٢٧من ذي الحجة ثم كانت المرحلة الثانية ممثلة في نزولهم إلى البر وإقامتهم معسكراتهم، ونصب خيامهم التي بلغت عدداً كبيراً، ولم تبدأ عمليات حصار المدينة ومهاجمة الأسوار بالدبابات الكبيرة والمنجنيقات سوى في اليوم الثالث ٣٠ من يوليو/٢٨ من ذي الحجة، وظل القتال دائراً حتى آخر النهار.

ولم تكن أخبار الأسطول خافية على أحد، بيد أن نزوله على الإسكندرية كان مفاجأة لصلاح الدين الذي كان بعيداً عنها، فسارع بإرسال المدافعين إلى كل من الإسكندرية ودمياط تحاشياً لمباغتها هي الأخرى، ولم يمض الكثير على عمليات الحصار، وربما قبل وصول إمدادات صلاح الدين إليها كاملة، حينما تصدت الإسكندرية للأسطول الصقلي في اليومين الثالث والرابع لقدومه، وفي اليوم الخامس كان المدافعون يطاردون الصقليين حول خيامهم، فتراجعوا بدورهم إلى مراكبهم التي لم يمتنع المسلمون عن التقدم نحوها وإغراق بعضها، وعليه فقد فرت السفن الباقية هاربة بمن عليها. ويبدو من طبيعة الهجوم وأحداثه أن الأسطول الصقلي لم يكن يخطط للاستيلاء على مصر وحده، وذلك لأن ما قام به ضد الإسكندرية لم يكن يساوي في نجاحه أي هجوم آخر سبق وقام به سواء على الإسكندرية أم دمياط وتنيس وبعدد أقل من السفن، بل إن ما تكبده من خسائر جمة لدليل من ناحية أخرى على أن المدينة كانت مستعدة للتصدي للأسطول، وقد سبق وتوجه صلاح الدين إلى الإسكندرية عام ١١٧٠م/٥٦٦هـ ؛ لرعاية تحصيناتها والنظر في أحوالها، ولا يستبعد قيامه بتأهيلها لمثل هذا الدور، بحيث تحملت ضربات الأسطول الصقلي بسرعة، بل والرد عليها.

ويدلل النجاح الذي حققه المصريون على أسطول بهذا الحجم على أن المدينة كانت مُعدّة جيداً لما هو أقوى من ذلك، على الأقل إذا ظل خط إمدادها مفتوحاً على داخل مصر، ولم يكن ليحدث ذلك إذا ما نجحت المؤامرة. ولم تكن خسائر الأسطول الصقلي بقليلة، ذلك أنه خسر كافة أدوات القتال التي أنزلها إلى الشاطئ، بما في ذلك الكباش والدبابات والمنجنيقات، علاوة على الخيام والمتاع والسفن التي أحرقت أو أغرقت، من جرّاء تعقب المصريين لها في عرض البحر، وعدد القتلى والجرحى والأسرى ممن أمسكهم المسلمون في الإسكندرية، وكانت الخسارة الفادحة من جرّاء فشل الأسطول في مهمته، إنما في الأموال الكثيرة التي أنفقها وليم الثاني على إعداد هذا الأسطول بحيث استغرق إعداده له خمسة سنوات، ربما منذ عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، ويكفي فقط الإطلاع على المعلومات التي أدلى بها أحد الفرسان الكبار الذين وقعوا في أسر صلاح الدين عن المبالغ الطائلة التي أنفقت أجوراً نقدية أو إقطاعيات لقادة الجيش وجنود أسطول بهذا الحجم.

ولاريب أن هذه الخسارة الفادحة كانت آخر ما سطرته المؤلفات المعاصرة عن فشل المؤامرة الكبرى التي اشترك فيها الملك عموري، ولم يكن الأمر مجرد نزوة أو عملية صغيرة بل كانت مؤامرة دُبر لها بغاية الدقة، ولكن اتساع نطاقها داخل مصر أفشى من أسرارها مما جعلها خطراً

هكذا اتسمت سياسة الملك عموري بالواقعية خلال هذه الفترة (١١٧٠-١١٧٤م/٥٦٦-٥٦٩هـ)؛ ذلك أنه أدرك الآن فقط حدود قوته الحقيقية، نتيجة لفشل حملاته الخمس على مصر منذ عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ وحتى عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ، حينما لم يحقق لسياسته الخارجية أهدافها، وأهمها السيطرة على مصر، في وقت شهدت فيه حكومتها أشد لحظات ضعفها حرجاً، فما باله إذا أصبح يواجه ما اتسم به صلاح الدين من قوة، ولعل من أهم سمات واقعية سياسة عموري التدرج الملموس في خطواته بداية بالتصدي للهجمات التي تعرضت لها مملكته دون أن يحاول الاشتباك مع مهاجميه في معركة يعرف جيداً نتائجها، ولذا فإن عموري فضل التوجه إلى ساحة المعركة مراقباً من بعيد، ثم استعان عموري في مرحلة لاحقة بالدبلوماسية المتزنة التي افتقرت إليها سياسته مسبقاً، بما تمثل في استعانته بكل من الغرب والإمبراطورية البيزنطية على حد سواء، واصطبغ الطور الثالث من سياسة عموري خلال هذه الفترة أيضاً بطابع المؤامرات السياسية، باستجابته لمؤامرة عمارة اليمني ورفاقه في القاهرة، وبجذب عموري لوليم الثاني إلى المؤامرة، إضافة إلى مفاوضات عموري مع الحشاشين في بلاد الشام، وبالرغم من ذلك لم تستفد مملكته من تلك السياسة، ومثلما بدأت تحركات سياسة الملك عقب اعتلائه للعرش بالتوجه نحو مصر في سبتمبر ١١٦٣م/شوال٥٥٨هـ فإنه ختمها بمشاركته أفكار المتآمرين في مصر عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ، وقد انتهى كل منها بالفشل.

وبوفاة الملك عموري في الحادي عشر من يوليو ١١٧٤م/العاشر من ذي الحجة

على كافة من اشترك فيها، وكان لدى صلاح الدين أعذاره في العودة مسرعاً من حصار الكرك في أوائل أبريل ١١٧٣م/منتصف شعبان ٥٦٨هـ، حينما كان المدبرون للمؤامرة يستحثون عموري على سرعة التحرك في البر والبحر واغتنام غياب صلاح الدين خارج البلاد، بيد أن المتآمرين نسوا أنه كان يصعب على عموري التوجه إلى مصر بجيشه، ضارباً بهجمات صلاح الدين على المملكة عرض الحائط؛ إذ كان متوقعاً أن يكون عموري واقعياً في سياسته التي تقتضي الحفاظ على ما تحت يديه قبل أن يضيع. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٧٦-١٧٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، ص٩٣؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٥٦؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٥-٥٦؛ البنداري: سنا البرق، ص٧٧-٨٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٩٨-٦٠٠.

٥٦٩هـ انتهت مرحلة القوة في تاريخ مملكة بيت المقدس، حينما دخلت المملكة عقب وفاته في فترة من الانحدار والضعف بتولية ابنه بلدوين الرابع لعرش المملكة، بحيث لم تفق المملكة من ضعفها إلا على صدى سقوطها في أيدي صلاح الدين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ.